مذ/ق
م48

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة أدرار

كلية الآداب و العلوم الإنسانية

قسم اللغة العربية و آدابها السنة الجامعية: 2004- 2005

مذكرة تخرج لنيل شهادة الليسانس في علوم اللسان العربي

بعنوان:

الأمراض اللغوية

دراسة للنتاج اللغوي العربي القديم في ضوء اللسانيات الحديثة

إعداد الطالب:
محمد المختار أحمد نعمان

إشراف الأستاذ:
مبارك بلالي

دفعة: 2005م ـ 1426هـ

48

﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ
الْعَالَمِينَ ۞ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾

سورة الأنعام – الآيتين: ١٦٢، ١٦٣

الإهداء

إلى والدي الفاضلين اللذين أرادا لي حقاً أن أتعلم، فكيف ببلذلهما لي وخيرها علي ظاهره وباطنه أن أنكره أو أنساه؟

إلى جدتي مباركة برادي التي ما فتئت تدعو لي بالخير والتوفيق فلها مني من الشكر والثناء جزيله وأسماه

إلى أختي الكريمتين خديجة وفاطمة امتناناً لهما وشكراً على فضلهما الذي ما بلغتُ مبلغي هذا لولاه

إلى خالي محمد وعمتي شاديكة وكل أخوالي وأعمامي شهادة بجهم للعلم ومن ابتغاه

إلى إخوتي جميعاً والأقارب كافةً عسى أن يكون هذا العمل حافزاً لهم على أن يمشوا ممشاه

إلى أحمد عبد اللاوي وعبد الرحمان توهامي، وحبيب الله بامحمد وأحمد إيسغلي -مع أنهما لم يفعلا شيئاً- إيماناً بأنهم سند الدرب إلى منتهاه

إلى كل من تتلمذتُ على أيديهم؛ معلمين، أساتذة، وشيوخاً عرفاناً بجميلهم وإنني هاهنا أدعو الله لكل منهم أن يسدد خطاه

إلى جميع أصدقاء الصبا والشباب والرفقاء في الجامعة الذين قضيت وإياهم أجمل وقت في العمر وأروعه وأحلاه

إلى كل من انتظر هذا العمل...

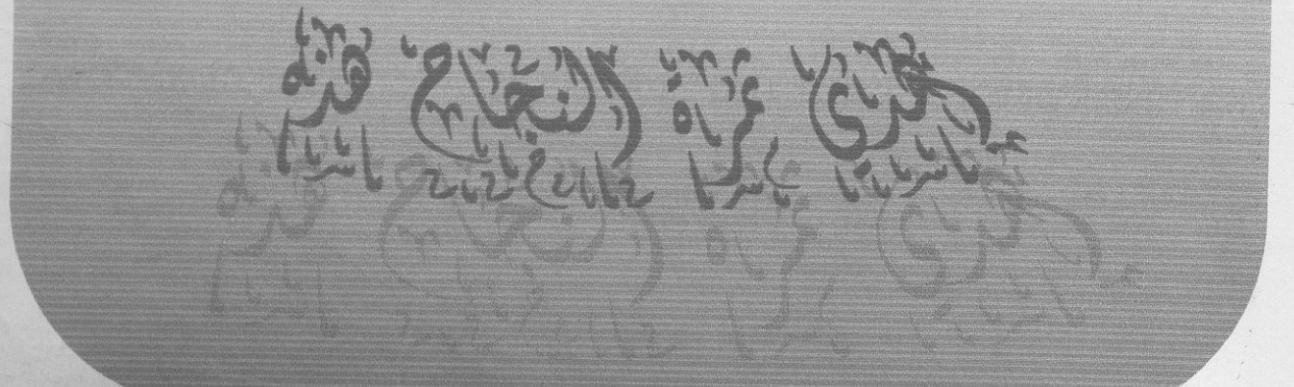

شكر وعرفان

عندما تكون ممتناً لأناس على خير لحقك منهم فإنك تكابد لأجل أن ترد الخير لهم فلا تجد ما تبلغ به هذا غير عبارات الشكر والامتنان.

وإذ ذلك فإنني هاهنا أشكر لكل من أخذ بيدي لكي أتعلم، وأثني على كل من مد لي يد العون حين إنجاز هذه المذكرة، خاصاً بالذكر الأستاذ المشرف: مبارك بلالي؛ الذي درّ علي من النصائح والإرشادات والمعلومات ما جعل هذا العمل يخرج في كثير من العلمية والمنهجية السليمة فله الشكر الشكر، ملحقاً به في ذلك جميع أساتذة قسم اللغة العربية وآدابها، وأساتذة جامعة أدرار عموماً.

ثم إن للأستاذ محمد السعيد بن سعد والأستاذ عبد الله عباس.. شكراً خاصاً لما أحقوني به من المحبة والتعويض عن فراق الأهل.

هذا وإن لزملائي في حجرة الدراسة بالغ الفضل علي في رص سطور هذا البحث هم وعمال المكتبة، وإن لهم مني جميعاً من الشكر والثناء أجوده وجزيله.

ولكم يطيب لي أن أضمّن هذه الصفحة الاعتراف بفضل الأصدقاء: بوسماحة بن بوسماحة، وسليمان نعاس، ومخلوف أولاد الحاج إبراهيم، ورضوان دباغ، وإبراهيم ساهل، ومحمد غيلاني، ومحمد زنقيلة،... وغيرهم على ما أمدوني به من كثير العون ووافر المساعدة على انجاز هذا العمل. ولا يظن الذين لم آت على ذكرهم أنني نسيتهم إنما فضلهم حاصل، وكل منهم بلا شك قد ساهم في وصولي المراد.

ذلك،.. وإن أولى من هو أولى بالشكر والامتنان والحمد والثناء هو الله الواحد الذي وهبني من النعم ما علمته وما لم أعلمه، وأفاض علي من فضله، وأوسعني من رحمته، وأعانني وألهمني الرشد في هذا العمل وفي غيره.. فكيف لا أكون عبداً شكوراً؟.

« مَن أَحَبَّ العَرَبِيَّةَ عُنِيَ بِهَا وَثَابَرَ عَلَيهَا وَصَرَفَ هِمَّتَهُ إِلَيهَا »

أبو منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي

" فقه اللغة وسر العربية "، ص: ٥٠

المقدمـــــة:

الحمد لله الرحيم الرحمان، الواحد في أيّمَا زمان ومكان، خالق الإنسان معلمه البيان، مُمَلِّكه لأجل ذلك آلاتٍ كالشفتين واللسان، والصلاة والسلام على النبي محمد المنادي بالإيمان، خير خلق الله ممن سيكون ومن كان، صاحب معجزة حمى الله بها لسان العرب من الاندثار هي القرآن، وعلى آله وصحبه الطاهرين صلاةً وسلاماً لا يحول دونهما سهوٌ ولا كسلٌ ولا نسيان.

وبعد..، فكثيراً ما كنا نسمع عن نظرية أو مكتَشف في عصرنا هذا أمكن التوصل إليه بعد جهدٍ جاهدٍ مقرون أحياناً باستخدام وسائل متطورة وتكنولوجيات عالية، في الوقت نفسه تتردّدُ على مسامعنا تصريحات تقول بأن هذا المكتشف أو تلك النظرية إما أنَّهُ مما وردَ ذِكْرُهُ في القرآن الكريم، وإما أن عالماً من علماء العرب القدماء أشار إليه منذ قرون مضت.

لقد أكبرت اللغة العربية ونشأ في نفسي حبٌ لعلمائها وحرص على الإطلاع والتعرف على إبداعاتهم ونِتاج عقلياتهم في كل الميادين المعرفية وبخاصة اللغوية منها، ليشاء الله أن أكون طالباً في قسم اللغة العربية وآدابها، وأن أتتلمذ على أيدي أساتذةٍ كانوا حريصين على دعوتنا إلى ضرورة العودة إلى التراث اللغوي العربي وإعادة قراءته والنظر في مظاهر الأصالة والإبداع فيه، وإثبات الأسبقية للبَحَثَة العرب في إرساء مرتكزاته؛ الأمر الذي كان حافزاً قوياً لي على طلب تلك المعارف وتلمسها، فأقف لأجدني أمام بحث تخرجٍ أَبَيْتُ إلا أن يكون في موضوع يُعدّ من آصل البحوث النظرية والتطبيقية في علم العربية.

وبعد أن بدأت علاقتي مع كتب القدماء تزداد وثوقاً واتصالاً، استرعى انتباهي موضوع أمراض اللغة واضطراباتها وآفاتها ما استهواني وأغراني بالبحث، بُغيةَ كشف ما أدركه القدماء في ذاك الموضوع ومعرفة مدى جدّهم وأصالة تناولهم له، وهذا بالاحتكام إلى البحث الحديث في الموضوع ذاته، فأصل في نهاية الأمر إلى صياغة عنوان لهذا العمل هو كما الآتي:

الأمراض اللغوية:

" دراسة للنِّتاج اللغوي العربي القديم في ضوء اللسانيات الحديثة "

إن هذا العنوان يعكس تساؤلات كثيرة ما برحتْ ملازمةً لذهني أهمها:

هل الاهتمام بالعاجزين عن النطق والمرضى لغوياً أمرٌ حديث أفرزه التطور العلمي والحضاري، أم أنه أمرٌ قديم؟، فإن كان قديماً، فهل عرف العرب تلك الأمراض؟، وما موقفهم منها خاصة وأن بحثهم في اللغة بلغ مبلغاً عظيماً؟، كيف كان منهج بحثهم لها؟، وهل انصرفوا إليها بالعلاج الناجع بعد أن أحاطوا بكل أشكالها؟، وأين موقع بحثهم فيما استجد من البحث الحديث المعتمد على الوسائل عالية التكنولوجيات وبالغة التطور والدقة؟...

للإجابة على هذه الأسئلة وغيرها حاولنا الإطلاع على ذاك الرُكام المعرفي، باحثين في *التصانيف التي تناولت موضوع* العلل اللسانية؛ إذ وجدنا أن أبرزها كتاب البيان والتبيين لمؤلفه أبي عثمان عمر بن بحر الجاحظ، وكتاب القانون في الطب لابن سينا، وكتاب الحاوي في الطب للرازي الطبيب.

فأما كتاب البيان والتبيين فقد استعرض فيه صاحبه الحالات التي شذَّ فيها النطق بالحروف عن مواضعه الصحيحة، وسمّى كثيراً من تلك الحالات، كالحبسة والرتّة واللجلجة والتمتمة واللثغة والحكلة واللكنة والعي والبهر والتشدق والشغا وغيرها، وعرض آراءً لعلاجها والتخلص من براثنها، علماً أن كتاب الجاحظ هذا تناول الأمراض اللغوية في معرض حديثه عن الفصاحة والخطابة والبلاغة.. وليس من الوجهة اللسانية البحتة.

وأما عن كتابي القانون في الطب والحاوي في الطب، فلا يخفى على القارىء أنهما كتابان في علم الطب، إلا أنه رُبط في مواضع منهما بين البحث العضوي واللغة، وكان صاحباهما قد عَمدَا فيهما إلى الإحاطة بالمشاكل العضوية المسببة للخلل في الكلام؛ فتحدثا عن العيوب المتعلقة بالصوت والمسببة لغلظه وقصره وارتعاشه وانقطاعه وبحوحته وما إلى ذلك، وذكرا العلل التي تصيب عضل اللسان والحلق والأسنان والحنجرة والشفتين والأذن...،فتُحدثُ قصوراً ظاهراً في استعمال اللغة.

هذا في الوقت الذي لم نهمل كتباً مثل الكامل في اللغة والأدب للمبرد، والعقد الفريد لابن عبد ربه، والمزهر للسيوطي، ومعاجم اللغة.. لأنها جميعاً كانت المُتكأ والمعين في البحث.

من جهة أخرى عمدنا إلى الكتب الحديثة المُصَنَّفَة في منحى العلل اللسانية، واعتمدنا على كتاب الدكتور مصطفى فهمي: " أمراض الكلام"، الذي عالج فيه عيوب النطق بتفصيل دقيق تماشياً مع تخصصه وحقله المعرفي، فأفاض القول فيما ذكره من العيوب العضوية، والعيوب الوظيفية، والعيوب الناتجة عن نقص القدرة الذهنية،.. ذاكراً الأسباب وواصفاً العلاجات.

إلى جانب هذا الكتاب اعتمدنا على كتاب الدكتور أنسي محمد أحمد قاسم:"اللغة والتواصل لدى الطفل"، وكتاب الدكتور حنفي بن عيسى:"محاضرات في علم النفس اللغوي"، وكتاب الدكتور محمد كشاش:"علل اللسان وأمراض اللغة"؛ والتي عرضت جميعُها لموضوع الأمراض الكلامية بالشرح والتفصيل.

إن هذا المنحى الذي ندرس فيه الأمراض اللغوية اضْطَرَّنا إلى البحث عن كتاب أو عمل شبيه به، فلم نعثر إلا على بحث بعنوان:" الجاحظ والأمراض اللغوية" تضمّنه كتاب: "قضايا أساسية في علم اللسانيات الحديث" للدكتور مازن الوعر؛ حيث عَمِدَ فيه المؤلف إلى كشف بحوث الجاحظ في الأمراض اللغوي ودرسها في ضوء علم اللسانيات الحديث، لمعرفة بعض الحقائق حول التأثيرات اللغوية العربية في بناء علم اللسانيات.

لقد ارتكزنا في هذه الدراسة على منهجي الاستقراء والوصف؛ فعمدنا باستخدام الأول إلى تتبع آراء علماء العربية وآراء الدارسين المحدثين في الأمراض الكلامية متلمّسين ما عُرف عن الأسباب المؤدية لها، والعلاجات الموصوفة لها أيضاً، وعمدنا بالتالي إلى تضمين هذا البحث تلك المعطيات والنتائج، لنُضفي عليها شيئاً من التحليل الذي يفسر جوانباً منها، زيادة على ذلك فإننا بهذا المنهج رُمنا استخلاص النتائج من مقارنة الملاحظات القديمة بالحديثة.

ذلك، وكنا نود الاستناد إلى المنهج التاريخي فننظر في تطور المرض اللغوي عبر العصور، إلا أن عواملاً حالت دون ذلك أهمها قلة البحوث في هذا المجال مما كان يمكن أن يكون عوناً ودليلاً.

لقد سرنا في هذا البحث وفق خطة قوامها ثلاثة فصول تتصدرها مقدمة وتعقبها خاتمة، عنونّا الفصل الأول منها بـــ: "**ملكة اللغة عند الإنسان**"؛ تحدثنا فيه عن قدرة الإنسان على التصويت بامتلاكه جهازاً متكاملاً يؤدي ذاك العمل، وهو جهاز باعث للصوت، وامتلاكه جهازاً يدرك به صوته والأصوات من حوله هو جهاز السمع، فيكونَ بقُدْرَتِهِ على النطق

والسمع تلك ممتلكاً للُّغة؛ هذه اللغة التي عرضنا لها بالتعريف، وذكر خصائصها، والإشارة إلى وظائفها، وكيف يتعلمها المرء لتكون أداة التواصل الإنساني. هذا الفصل إنما أردنا به استحضار ذهن القارئ وإيصاله إلى نتيجة مفادها أن اللغة هي وسيلة قوة الإنسان وتَفَرُّدِه وأداة تطوره، هي التي كَتَب بها التاريخ، وهي التي رسم بها خطى التقدم والازدهار، ومع ذلك قد تصاب بالعلل والأمراض التي تقصر بها عن أداء وظائفها.

أما الفصل الثاني فقد وسمناه بـــ: "**البحث في علل اللسان وأمراض اللغة عند العرب**"؛ وقفنا فيه لبرهة عند الدرس اللغوي العربي ناظرين في بواعثه، ومناهج البحث فيه، وأهم المستويات والموضوعات التي أفرد لها علماؤنا الرسائل والكتب، وذلك من أجل تبيين المناخ العلمي بوصف الوسط الذي عُولجت فيه قضايا لغوية عديدة من بينها مسألة المرض الكلامي.

بعد ذلك عمدنا إلى الأمراض اللغوية بذكر التآليف الموضوعة في مسائلها من قِبَلِ علمائنا، وضبط المنهج الذي ساروا عليه في استقراء هذا الموضوع ووصف مظاهره، لنعرض الأشكال المرضية التي فطنوا لها بعد أن ضبطناها في تقسيم معين، لنُتْبِعَ هذا بالحديث عن الأسباب والعلاجات التي قال بها علماؤنا فيما يتعلق بتلك العيوب.

ولما وجدنا بحثَ علمائنا القدامى مميزاً بدقة كبيرة وموضوعية عالية كان لزاماً علينا أن نعرضه على جديد الدراسات اللسانية الحديثة؛ فعقدنا لذلك فصلاً كاملاً سميناه:" **سبر تجربة القدماء من منظور لساني حديث**"، استعرضنا فيه المرض اللغوي في المنهج الحديث؛ بذكر التصنيفات الموضوعة للأمراض الكلامية وأهم الأشكال المعروفة منها، وتوضيح أسبابها العامة، وذكر العلاجات الموصوفة لها، هذا من جهة. ومن جهة أخرى وازنّا منهج تناول مسائل العلل اللسانية عند علمائنا العرب بالدرس الحديث، ووازنّا بعض الأنواع المرضية لنخْلُصَ من ذلك كله إلى نتائج كفيلٌ بمن يبتغي التعرف عليها قراءةُ هذا العمل وإن كنا ذكرنا أبرزها في الخاتمة.

هذا ولا نتعلل بصعوبات عرضت لنا في إنجاز هذا العمل- فتلك صفةُ كل بحث قلّت أم كثُرت- بقدر ما نقول إننا لا نُنكر أن يُصيبنا النقص إن منهجاً وإن موضوعاً في التعرض لنقاطه، وقد يكون العزاءُ في هذا أن موضوع الأمراض اللغوية موضوع شاسع عريض يحتاج إلى إلمامٍ بقضايا علم الأصوات وعلم النفس ومباحث علم الاجتماع وعلم اللغة وبعض مسائل التشريح... وغيرها.

في الأخير نرجو أن يكون هذا العمل سبباً في الإلتفات إلى هذا الموضوع والمُضي به قُدماً في سبيل كشف المزيد مما استغلق منه، وحسبنا بما قدمنا اجتهاداً.

إننا نستمد العون والتوفيق من الله، هو نعم المعين ونعم الموفّق ونعم المولى ونعم النصير.

أدرار يوم الثلاثاء ١٠ ماي ٢٠٠٥م

الموافق لـــ: ٠٢ ربيع الثاني ١٤٢٦ هـــ

الفهـــــــرس

مقدمـــــــة

١ الفصل الأول: ملكة اللغة عند الإنسان

١-١ الإنسان كائن ناطق..... ١٤

١-١-١ قدرة الإنسان على التصويت..... ١٤

١-١-١-١ جهاز النطق..... ١٦

١-١-١-٢ حدوث الصوت..... ١٩

١-١-٢ إدراك الصوت بجهاز السمع..... ٢٠

١-٢ ماهية اللغة البشرية..... ٢٣

١-٢-١ التعريف باللغة ونشأتها..... ٢٣

١-٢-١-١ التعريف باللغة..... ٢٣

١-٢-١-٢ نشأة اللغة البشرية..... ٢٥

١-٢-٢ خصائص اللغة البشرية..... ٢٧

١-٢-٣ وظائف اللغة..... ٢٩

١-٢-٤ كيف يتعلم الإنسان اللغة؟..... ٣١

١-٣ اللغة والتواصل الإنساني..... ٣٥

١-٣-١ اللغة والفكر..... ٣٥

١-٣-٢ اللغة والمجتمع..... ٣٦

تقويم عام..... ٣٩

٢ الفصل الثاني: البحث في علل اللسان وأمراض اللغة عند العرب

تمهيد ٤١

٢-١ لمحة عن الدراسات اللغوية عند العرب ٤٣

٢-١-١ نشأة الدرس اللغوي العربي ٤٣

٢ -١-١-١ دوافع ظهور الدرس اللغوي..... ٤٣
٢ -١-١-٢ مناهج البحث في اللغة ٤٤
٢ -١-٢ مستويات الدرس اللغوي العربي..... ٤٧
٢ -١-٢-١ المستوى الصوتي..... ٤٨
٢ -١-٢-٢ المستوى الصرفي..... ٤٩
٢ -١-٢-٣ المستوى التركيبي ٥٠
٢ -١-٢-٤ موضوعات أخرى ٥٢
٢ -٢ الأمراض اللغوية في الدرس اللغوي العربي..... ٥٤
٢ -٢-١ التأليف في المرض اللغوي..... ٥٤
٢ -٢-٢ منهج البحث في المرض اللغوي..... ٦٢
٢ -٢-٣ المرض اللغوي أقسامه وأهم أنواعه..... ٦٣
٢ -٢-٣-١ أقسام الأمراض اللغوية..... ٦٤
٢ -٢-٣-٢أنواع الأمراض الكلامية ٦٤
٢ -٢-٤ أسباب العلل اللسانية وعلاجاتها..... ٧٣
٢ -٢-٤-١ أسباب العلل اللسانية ٧٣
٢ -٢-٤-٢ علاج العلل اللسانية ٧٦
تقويم عام..... ٧٩
٣ الفصل الثالث: سبر تجربة القدماء من منظور لساني حديث
تمهيد..... ٨١
٣ -١ الأمراض اللغوية في اللسانيات الحديثة..... ٨١
٣ -١-١ تصنيف الأمراض اللغوية ٨٢
٣ -١-٢ أهم الأشكال المرضية المعروفة ٨٤
٣ -١-٣ أسباب الأمراض اللغوية وعلاجاتها..... ٩٣
٣ -١-٣-١ أسباب الأمراض اللغوية..... ٩٣
٣-١-٣-٢ علاج الأمراض اللغوية..... ٩٤

٣ -٢ مقارنة بعض النتائج القديمة بالحديثة..... ٩٦
٣ -٢-١ مقارنة منهج البحث في المرض اللغوي..... ٩٦
٣-٢-٢ مقارنة بعض الأنواع المرضية..... ٩٨
تقويم عام..... ١٠٤
خاتمـــــــة..... ١٠٥
قائمة المصادر والمراجع..... ١٠٨

الفصل الأول: ملكة اللغة عند الإنسان

الإنسان... !!. الإنسان أذن تسمع، وعين تبصر، ويد تبطش، وقلب يعي، وفم ينطق... ترابطٌ تناسقٌ مُقادٌ بالفكر محفوفٌ بالعقل، يتولد عنه كمٌّ كثيف من المشاعر والأحاسيس والرؤى التي تختلج صدر ابن آدم لا يمكن الإطلاع على فحواها إلا باللغة.

هذه اللغة التي ليست في الشبه أكثر من مفتاح بسيط بإمكانه إن يحل شيفرة الدخول إلى عالم مليءٍ بالأفكار؛ أفكار تُميِّز البشر عن سائر موجودات هذا العالم.

فما اللغة ؟. بم تمتاز؟. ما وظيفتها؟، وما الذي يضمن للإنسان الإنفراد بها؟، وكيف يكتسبها؟، وما مكانتها منه؟ ...هذا ما نحاول لَمسه في هذا الفصل.

١-١ الإنسان كائن ناطق

يقول المولى عز وجل في كتابه الكريم: ﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴾[١] وجاء في تفسير هاتين الآيتين:« ألم نجعل له عينين يُبصر بهما المرئيات و لساناً يترجم به عن ضمائره، وشفتين يطبقهما على فيه ويستعين بهما على النطق...» [٢]، فقد وهب الله الإنسان مقدرة على التعبير عمّا في فؤاده من أفكار و مشاعر ومكّنه من النطق وملّكه الآلة التي يُتأتى بها ذلك ليكون الكائن الوحيد في مملكة الأحياء الذي يستطيع التعبير عن مكموناته بوساطة الأصوات.

١-١-١ قدرة الإنسان على التصويت

لما تميز الإنسان عن سائر موجودات هذا العالم بغير واحدة من الميزات والتي تجد الترابط بينه وبين بني جنسه والتواصل معهم محورها؛ فإنه قد هُيِّئَ له خلقياً ما يناسب ذاك الترابط و إجراء الخطاب.. فهو مؤهل لإنتاج الصوت.

الصوت؛ حامل الحضارة الإنسانية لما فيه الحس، بوصفه ظاهرة فيزيائية و فيزيولوجية تحقق عملية التواصل بين البشر، يقول ابن فارس[٣] (٣٩٥هـ):« الصاد و الواو و التاء أصل صحيح وهو الصوت، وهو جُنس لكل ماْ وقر في أذن السامع، يقال هذا صوت زيد، ورجل صيت إذا كان شديد الصوت وصائت إذا صاح.»[٤]

---

(١) ـ سورة البلد، الآيتين ٨ و ٩.

(٢)ـ الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي. دار المعرفة بيروت – لبنان. لاط، لا تا. ج:٤، ص ٢١٢ - ٢١٣.

(٣)ـ هو أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني، من أئمة اللغة والأدب ولد عام ٣٢٩هـ-٩٤١م وتوفي عام ٣٩٥هـ- ١١٠٤م، من كتبه: مقاييس اللغة، الجمل، جامع التأويل في تفسير القرءان، الصاحبي في فقه اللغة، الإتباع والمزاوجة.. ، يراجع: الأعلام، خير الدين الزركلي. دار العلم للملايين. بيروت، لبنان. الطبعة الرابعة عشرة: ١٩٩٩. ج١، ص: ١٩٣.

(٤) ـ مقاييس اللغة. أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا. تحقيق و ضبط: عبد السلام هارون، دار الجيل - بيروت. الطبعة الأولى: ١٤١١ هـ- ١٩٩١. ج: ٣، ص: ٣١٨ .

«والصوت هو آلة اللفظ، و الجوهر الذي يقوم به التقطيع، وبه يوجد التأليف، ولـــن تكون حركات اللسان لفظاً ولا كلاماً موزوناً ولا منثوراً إلا بظهور الصوت» [1] .

فالصوت هو الأساس الأول الذي يَنبني عليه الكلام؛ لأنه آلة الألفاظ ومنشؤها. وهو أثرٌ سمعي [2] ناتجٌ عن ذبذبة[3] حاصلة في جسم من الأجسام[4]، تتنوع مصادرها بين احتكاك

---

(١) – البيان والتبيين، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ. تحقيق وشرح: عبد السلام هارون. مكتبة الخانجي القاهرة، الطبعة الخامسة: ١٤٠٥هـ– ١٩٨٥م، مج: ١، ج: ١، ص: ٧٩.

(٢) – إن الترددات المنخفضة هي التي تثير الإحساس بالسمع لدى الإنسان ويسمى هذا الصوت بتحت السمعي، أما الترددات العالية فلا يمكن للإنسان إدراكها، وتسمى بالصوت فوق السمعي؛ وعليه فإن مصطلح صوت يمكن أن يستخدم للدلالة على أي اضطراب مهما كان تردده. ينظر: معجم البصريات والصوتيات. محمد عبد المقصود النادي، محمد أحمد المسيري، سعيد الجزيري، عبد الفتاح الشاذلي. أكاديميا، بيروت– لبنان.لا ط، لا تا. مادة صوت son .

(٣) – الذبذبة الصوتية مصطلح يطلق على تحرك جسم من نقطة اتزان إلى اتجاه ما، ثم عودته إلى نقطة الاتزان، ثم تحركه إلى نقطة عكس النقطة الأولى والعودة إلى نقطة الاتزان. ومثاله أنك لو قمت بطرق شوكة رنانة ذات ذراعين فإن كل ذراع يتحرك أولاً في اتجاه ما نحو مسافة معينة ثم يعود إلى نقطة الاتزان و تستمر الحركة إلى الأمام والخلف حتى يختفي التذبذب تماماً. ينظر: المدخل إلى علم الأصوات – دراسة مقارنة –، صلاح الدين صالح حسنين. دار الاتحاد العربي للطباعة، الطبعة الأولى: ١٩٨٥، ص: ١٢.

(٤) – أثبتت التجارب أن الصوت لا يسمع إلا بوجود اهتزاز حادث في مصدره، ولا يمكن إدراك تلك الهزات بالعين في بعض الحالات، علماً أن الذبذبات الحاصلة تنتقل إما في وسط غازي أو سائل أو صلب وصولاً إلى أذن الإنسان. .يراجع: الأصوات اللغوية، إبراهيم أنيس. مكتبة الأنجلو المصرية. ط: ١٩٩٩. ص : ٩ .

وقد تفطن علماء العربية لهذه الخصائص في إشارات تعبر عن مستوى الرقي الذي بلغه الفكر العربي في مجال الدراسة الصوتية؛ فهذا الراغب الأصفهاني (٣٦٥ هـ) يقول في كتابه " المفردات في غريب القرآن " ص: ٢٨٨:« الصوت هو الهواء المنضغط عن قرع جسمين.. »؛ فقرع الجسمين إشارة واضحة إلا لزوم حدوث اهتزاز في مصدر الصوت كما ذكرنا. والهواء المنضغط يوضحه إرنست بولجرام في كتابه " التصوير الطبقي للكلام "، ترجمة وتعليق: سعد عبد العزيز مصلوح. عالم الكتب، القاهرة. ط: ١٤٢٢ه-٢٠٠٢م، ص: ١٩ بقوله:« إن الجسم الذي هو مصدر الصوت حين يهتز لا يحدث إلا دفعاً لجزيئات من الهواء الحامل للصوت... وحين يندفع كل جزيء منها بهذه الطريقة يضغط أمامه على الجزيئات المجاورة له مباشرة»؛ وهو شرح وتأكيد لكلام الأصفهاني. ويأتي الرازي أحمد بن محمد بن المظفر بن المختار(٥٦٣١) ليشير في كتابه "الحروف" إلى الوسط الذي ينتقل فيه الصوت اللغوي وهو الهواء بقوله: « والحروف اللفظية هي أصوات محمولة في الهواء مدركة بطريق الأذنين بالقوة السامعة »، الأمر الذي تؤكده الدراسات الحديثة بقولها:« لما كان الكلام الذي يربط بين الأشخاص ويجعلهم يتفاعلون، فالهواء هو الوسط الذي ينتقل فيه الصوت». المدخل إلى علم الأصوات، صلاح الدين صالح حسنين. ص : ١٠ .

جسم بآخر أو اصطدامٍ به أو من آلات الموسيقى... أو من جهاز النطق عند الإنسان؛ فالإنسان يمتلك وحدة عضوية وظيفتها إصدار الصوت اللغوي.

١-١-١-١ جهاز النطق

يتألف جهاز النطق عند الإنسان من ثلاثة أقسام رئيسة هي[١]:

أ)- الجهاز التنفسي، ب) - الجهاز التصويتي، ج)- الجهاز النطقي.

I. الجهاز التنفسي: يتألف من:

أ)- الرئتان: هما منفاخ الهواء الذي تنعدم عملية الكلام بانعدامه، بنيتهما مطاطية يؤدي الحجاب الحاجز والقفص الصدري دوراً مهماً في نشاطها.

ب)- القصبة الهوائية: أنبوب مكون من غضاريف على شكل حلقات غير مكتملة من الخلف، خلفها يتواجد البلعوم؛ وهو أنبوبة وظيفتها نقل الطعام والشراب إلى المعدة. يتراوح قطر القصبة الهوائية ما بين ٢ و ٢,٥ سم وطولها حوالي ١١ سم .« كان يُظن قديماً أن لا أثر لها في الصوت اللغوي، بل هي مجرد طريق للتنفس، ولكن البحوث الحديثة برهنت على أنها تستغل في بعض الأحيان كفراغ رنان ذي أثرٍ بيّنٍ في درجة الصوت ولا سيما إذا كان الصوت عميقاً»[٢].

II. الجهاز التصويتي: يتكون هو الآخر من:

أ)- الحنجرة: تسمى حجرة الصوت، وهي علبة غضروفية تتصل بالطرف الأعلى للقصبة الهوائية وتحوي الوترين الصوتيين.

ب)- الوتران الصوتيان: أو الحبال الصوتية، هما رباطان مرنان يشبهان الشفتين يقعان متقابلين في الحنجرة، ويمتدان من الخلف إلى الأمام حيث يلتقيان عند البروز المسمى تفاحة آدم. يمتاز الوتران عند الرجال بالطول والغلظة، وعند النساء والأطفال بالرقة والقصر، وهما أصل الصوت الخشن عند الرجال والرقيق لدى النساء.

---

[١]- يراجع: محاضرات في علم النفس اللغوي، حنفي بن عيسى. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر. الطبعة الثانية: ١٩٨٠. ص:١٢١.

[٢]- الأصوات اللغوية، إبراهيم أنيس. ص: ١٩.

إن انقباض الوترين ينشأ عنه حدوث فراغ بينهما يسمى المزمار، حيث إن اتساعه وضيقه يُوَلِّد اختلافاً في درجة الصوت و« للمزمار غطاء يسمى عادة لسان المزمار، وظيفته الأصلية أن يكون بمثابة صمام يحمي طريق التنفس في أثناء عملية البلع» [1].

III. **الجهاز النطقي:** يسمى التجاويف فوق المزمارية ويتكون من:

ا)- تجويف الحلق: هو التجويف الواقع بين الحنجرة وأقصى الفم، ويستعمل كفراغ رنّان لتضخيم الصوت الناتج عن ذبذبة الوترين الصوتيين.

ب)- اللسان: نظراً لأهميته نسب علماء العربية الظاهرة اللغوية إليه، يتصف بالمرونة وخفة الحركة وكثرتها منوعاً مخالفاً بين الأصوات وينقسم إلى: طرف اللسان (أوله)، ووسط اللسان، وأقصى اللسان.

ج)- الحنك الأعلى: هو سقف التجويف الفموي الذي يشكل اللسان أرضية له وينقسم هو الآخر إلى: مقدم الحنك، وسط الحنك (الحنك الصلب)، وأقصى الحنك (الحنك اللين)، واللهاة.

د)- التجويف الأنفي: هو العضو الذي يندفع منه الهواء عند نطق بعض الأصوات كالميم، إلا أنه يستعمل كفراغ رنان أيضاً يضخم بعض الأصوات عند النطق[2]

هـ)- الشفتان[3] : عضوان مهمان في عملية التأثير على صفة الصوت ونوعه، فقد تنفرجان أو تنطبقان أو تستديران. وتتدخل الشفتان كعنصر أساسٍ في إحداث أصواتٍ مثل الميم والباء، ولهما تأثير ثانوي في أداء حروف كالشين والجيم والواو.

و)- الأسنان: تُؤثر الأسنان في صفة الصوت ونوعه كذلك، وهي ٣٢ سناً عند البالغ. نصفها مثبت بالفك الأعلى والنصف الآخر بالأسفل، وتتنوع بين قواطع وأنياب وأضراس.

تلك هي الأعضاء المتحكمة في النطق (ينظر الشكل ٠١)، ووصفها بأعضاء النطق إنما

---

[1] - المصدر السابق، الصفحة نفسها.

[2]- ينظر: المصدر نفسه، ص: ٢٠.

[3]- تختلف عادات المتكلمين في استغلال الشفاه، فأقوام يتميز نطقهم بكثرة حركة الشفتين ومنهم من يقتصدون في ذلك كحالة الناطقين بالعربية. يراجع: المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

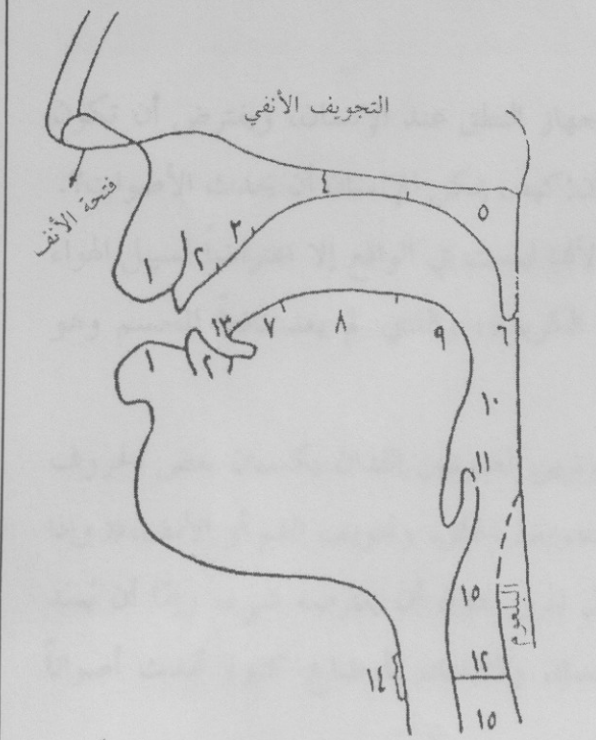

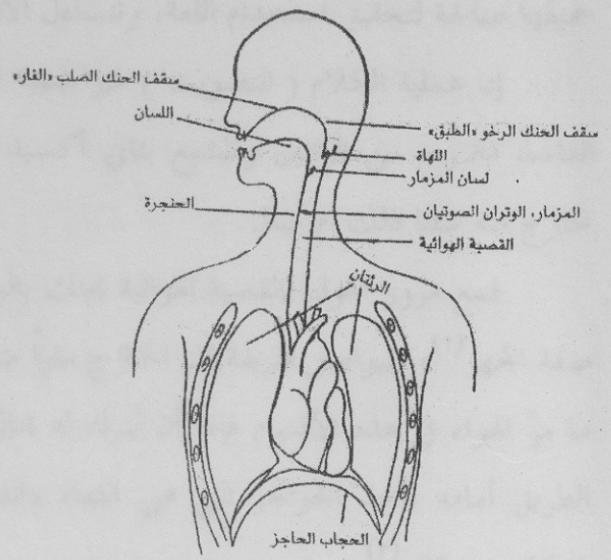

١- الشَّفَتان
٢- الأسْنان
٣- أُصول الأسنان
٤- الحَنَك الصُّلْب (مقدّم الحَنَك)
٥- الحَنَك اللَّيِّن (أقصى الحَنَك)
٦- اللَّهاة
٧- طَرَفُ اللِّسان
٨- مُقَدَّمُ اللِّسان (وسط اللسان)
٩- مُؤَخَّرُ اللِّسان
١٠- الحَلْق
١١- لِسانُ المِزْمار
١٢- الوَتران الصَّوتيان
١٣- ذَلَق اللِّسان (نهايتُه)
١٤- الحَنْجَرة
١٥- القَصَبَة الهَوائيّة

شكل(01): رسمان توضيحيان لجهاز النطق عند الانسان

الشكلان مأخوذان من: معجم اللسانيات الحديثة ص: ٩، والتصوير الطيفي للكلام ص: ٢٣.

هو من باب الوظيفة الثانوية، وليس الأساسية؛ لأن الأصل فيها حيوي بيولوجي بحت[1]. ومع ذلك فالإنسان مؤهل لاستغلال هذه الأعضاء في إحداث الصوت وبالتالي عملية التواصل بين أعضاء الجنس البشري.

١-١-١-٢ حدوث الصوت

عرفنا فيما سبق العناصر التي يتألف منها جهاز النطق عند الإنسان، ويفترض أن تكون جميعُها صالحة لتحقيق استخدام اللغة، ونتساءل الآن: كيف يمكن للإنسان أن يحدث الأصوات؟.

إن عملية الكلام (التصويت) غير صعبة لأنها ليست في الواقع إلا اعتراضاً لسبيل الهواء الفاسد الخارج من الرئتين والمشبع بثاني أكسيد الكربون، والذي لم يعد نافعاً للجسم وهو خارج منه شئنا ذلك أم أبينا.

فمع مرور الهواء بالقصبة الهوائية يحتك بالوترين الصوتيين اللذان يكسبان بعض الحروف صفة الجهر[2]، ليواصل طريقة إلى الخارج ماراً بتجويف الحلق، وتجويف الفم أو الأنف،« وإذا ما مرّ الهواء في هذه الأقسام فإما أن يُترك له مجال المرور دون أن يعترضه شيء، وإمّا أن يُسَد الطريق أمامه بأحد الحواجز التي هي اللهاة واللسان والشفتان بأوضاع كثيرة تحدث أصواتاً مختلفة متنوعة» [3].

وقد وصف ابن جني(٣٩٢هـ)[4] جهاز النطق وكيفية حدوث الصوت وصفاً دقيقاً فقال:« شبَّه بعضهم الحلق والفم بالناي؛ فإن الصوت يخرج فيه مستطيلاً أملس ساذجاً كما يجري الصوت في الألف غُفلاً بغير صنعة؛ فإذا وضع الزامر أنامله على خروق الناي المنسوقة

---

[1]- هذا أمر واضح؛ فالحجاب الحاجز والرئتان والقصبة الهوائية هي أعضاء لازمة للتنفس ولإمداد الجسم بالأكسجين، والفم بما فيه من الأسنان، واللسان والشفتين أدوات لإمساك الطعام وقضمه، ووظيفة الأنف الحيوية هي ترشيح الهواء قبل دخوله الرئتين، وشم الروائح... يراجع: مدخل إلى التصوير الطيفي للكلام، إرنست بولجرام. ص: ٢٨.

[2]- الجهر صفة من صفات القوة يتحكم فيها الوتران الصوتيان باهتزازهما واللذان كلما تقاربا كان الصوت قوياً رناناً، في حين أن اهتزازهما ينعدم أثناء عملية التنفس ونطق الحروف المهموسة.

[3]- فقه اللغة و خصائص العربية، محمد المبارك. دار الفكر، بيروت- لبنان. الطبعة الخامسة: ١٩٧٢، ص: ٤٤.

[4] - هو أبو الفتح عثمان بن جني ولد بالموصل على خلاف في السنة، وتوفي ببغداد عام٣٩٢ه- ١٠٠٢م خلف كتباً جمَّة تدل على فضاء وعلمه منها: الخصائص، سر صناعة الإعراب، التبصرة، تصريف المازني،... يراجع : الأعلام، خير الدين الزركلي. ج٤، ص:٢٠٤.

وراوح بين أنامله اختلفت الأصوات وسُمِع لكل خرق منها صوت لا يشبهه صاحبه، فكذلك إذا قُطِع الصوت في الحلق والفم باعتمادٍ على جهـــاتٍ مختلفةٍ كان سبب استـــماعنا هذه الأصوات المختلفة»[1].وكأن الإنسان عازفٌ ماهرٌ على آلة نفخية يستطيع بها التلوين بين الأصوات اعتماداً على الإمكانيات التي تتيحها له عناصر النطق، وهذا-طبعاً- بنُضجِها وتكاملها.

لكن عملية التصويت وحدها لا تكفي لأن يوصف الإنسان بأنه متكلم لاعتبار آخر هو وجوب إدراكه لطبيعة الصوت الناتج عنه، وفترة إنتاجه، وكذا إدراك المُخاطب الخصائص نفسها، لأجل ذلك زُوّد الإنسان بحاسة السمع.

١-١-٢ إدراك الصوت بجهاز السمع

إن التواصل في حقيقته عملية مركبة من مراحل[2]؛ فبدءاً بمرحلة إنتاج الأصوات التي يسهم فيها المخ و جهاز النطق بأعضائه المختلفة، والتي تُتْبَع بمرحلة الانتقال في الوسط المخصص لذلك وهو الهواء، وصولاً إلى مرحلة التقاط الموجات الصوتية الناتجة عن الجسم المتذبذب بوساطة حاسة السمع، لترسل إلى المخ فترجم وتفسر. وإن أي خلل يحدث في واحدة من هذه المراحل يعكس أثره على عملية التواصل بوجه عام.

إن للسمع أهمية كبيرة في حياة الإنسان؛ فبه يكون قادراً على إدراك الأصوات من حوله وفهمها، ومن ثم فإنه لن يتمكن من استخدام لغة من اللغات، وبالتالي التواصل مع غيره بها إلا إذا أدرك نظامها الصوتي، ولن يتيسر له ذلك إلا إذا سمع أصواتها؛ فالسمع أصلٌ في اكتساب اللغة.

« لقد سبق السمع في نشأته ونموه نمو الكلام والنطق » [3] ولا يبعد أن يكون أصلاً لنشوء اللغة؛ وذلك حينما أدرك الإنسان به أصوات الطبيعة وقلّدها. وهو أقوى الحواس وأكثرها نفعاً للإنسان؛ فهو أقوى من النظر — مثلاً — في تمييز المرئيات ومن الشم في التعرف

---

(١)- سر صناعة الإعراب، أبو الفتح عثمان بن جني، تحقيق: محمد حسن محمد حسن إسماعيل، وأحمد رشـــدي شـــحاتة عامر. دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان. ط: ١٤٢١ هـــ- ٢٠٠٠. ج١، ص: ٢١ -٢٢.

(٢) - يراجع: مباحث في اللسانيات، أحمد حساني. ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر. ط: ١٩٩٩، ص: ٦٩.

(٣)- الأصوات اللغوية، إبراهيم أنيس. ص: ١٤.

على الروائح، يتَّضحُ ذلك من خلال إمكانية إدراك الأصوات ومعرفة مصادرها من مسافات كبيرة رغم وجود عوائق كالجبال والوديان والتيارات الهوائية التي تعيق حاستي الشم والبصر[1].

وإذا ما أجرينا مقارنة بين الكفيف (فاقد البصر) والأصم[2] لتبيين فضل السمع وجدنا الشخص الكفيف ممكن الاندماج في الحياة الاجتماعية بكل أبعادها(المعرفية، الوجدانية، اللغوية...)؛ وذلك بفعل المرجعية السمعية التي يستعملها كتعويض عن الإعاقة البصرية، في حين أن الأصم يعاني الويلات بسبب هذه العاهة؛ نموه اللغوي محدود إن لم يكن معدوماً، يسهل على الإضطرابات النفسية صيدُه، كما أن تفاعله الاجتماعي ضئيل...، وهذا إنما يدل على أن السمع أساس بناء ملكات الإنسان وقدراته وأساس تطويرها والحفاظ عليها وخاصة اللسانية منها ما أكده العلامة ابن خلدون(٨٠٨هـ)[3] بقوله:« والسمع أبو الملكات اللسانية»[4].

وحاسة السمع الطبيعية هي الأذن، يقسمها علماء التشريح إلى ثلاثة أقسام[5]:

١-**الأذن الخارجية:** دورها آلي يتمثل في التقاط الأصوات وتتألف من:

أ)- الصيوان: وهو ما يظهر للعيان من الأذن.

ب)- الصماخ: القناة التي تمر فيها الموجات لتصل إلى الطبلة.

ج)- الطبلة: غشاء ناقل للأثر.

---

(١) – المصدر السابق، ص: ١٤- ١٥.

(٢)- ينظر: السمع والتنظيم العقلي، رسالة لنيل شهادة الماجستير في علم النفس العيادي، إعداد: بن حالة نصير، جامعة الجزائر، السنة الجامعية: ٢٠٠٠-٢٠٠١. ص: ٩٩ وما بعدها.

(٣) - هو عبد الرحمان بن محمد بن محمد بن خلدون أبو زيد ولي الدين الحضرمي الإشبيلي، فيلسوف، مؤرخ، عالم اجتماع، بحّاثة، ولد بتونس عام ٧٣٢ هـ - ١٣٣٢م ونشأ بها، رحل إلى غرناطة وتلمسان والأندلس، تولى القضاء، كان فصيحاً عاقلاً جميلاً صادقاً، اشتُهر بكتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر، أوله مقدمته التي اشتهر بها أكثر من الكتاب ولا يعرف إلا بها. توفي بالقاهرة عام ٨٠٨هـ - ١٤٠٦ م. يراجع: الأعلام. خير الدين الزركلي. ج: ٣، ص: ٣٣٠.

(٤) - مقدمة ابن خلدون، عبد الرحمان ابن خلدون. دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان. الطبعة الأولى: ١٤٢١هـ- ٢٠٠٠م. ص: ٤٧٠.

(٥) - ينظر: الأصوات اللغوية، إبراهيم أنيس. ص: ١٦-١٧، ومباحث اللسانيات، أحمد حساني. ص: ٧٥.

٢- الأذن الوسطى: هي الجزء الذي يلي الطبلة مباشرة وتشتمل على المطرقة والسندان والركاب، وبوساطتها تنتقل الأصوات من وسط هوائي إلى وسط سائل في الأذن الداخلية.

٣- الأذن الداخلية: تحتوي على السائل التيهي الذي تنغمس فيه الأعصاب السمعية الناقلة للذبذبات الصوتية إلى مراكز السمع في المخ. وبهذه الآلة ندرك الأصوات المختلفة واتجاهاتها، (ينظر الشكل- ٢-) ويتظافر عمل جهاز النطق وجهاز السمع والمخ ليستطيع الإنسان استخدام اللغة.

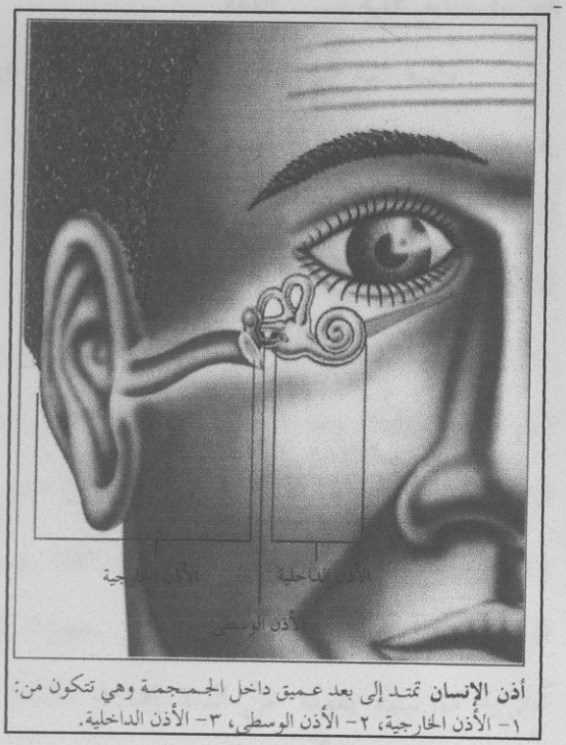

أذن الإنسان تمتد إلى بعد عميق داخل الجمجمة وهي تتكون من: ١- الأذن الخارجية، ٢- الأذن الوسطى، ٣- الأذن الداخلية.

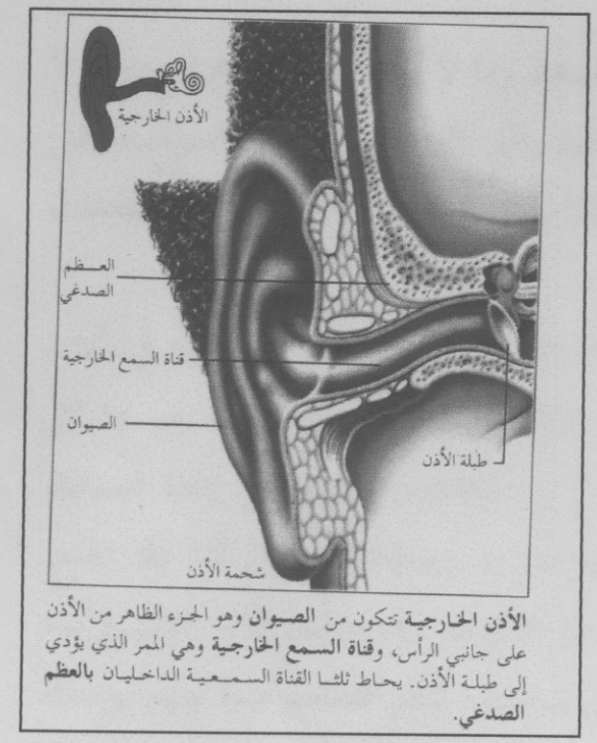

الأذن الخارجية تتكون من **الصيوان** وهو الجزء الظاهر من الأذن على جانبي الرأس، **وقناة السمع الخارجية** وهي الممر الذي يؤدي إلى طبلة الأذن. يحاط ثلثا القناة السمعية الداخليان **بالعظم الصدغي**.

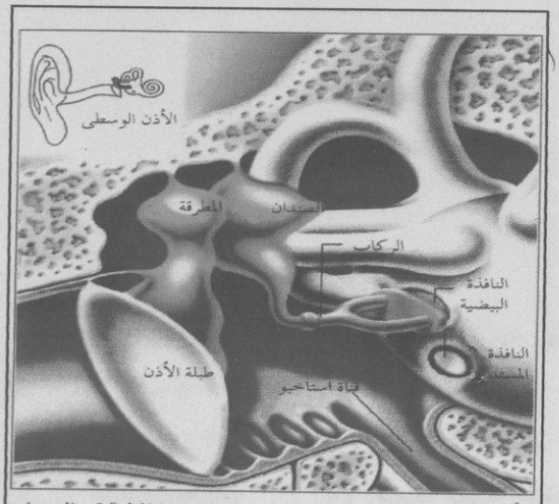

الأذن الوسطى تحتوي على ثلاث عظمات هي **المطرقة والسندان والركاب**. وهي تربط غشاء الطبلة بغشاء في الأذن الداخلية يسمى **النافذة البيضية**. وتصل قناة إستاخيو الأذن الوسطى بالجزء الخلفي من الحلق.

شكل(2): رسوم توضيحية لحاسة السمع

الأشكال مأخوذة من: الموسوعة العربية العالمية

ص: ٤٣٥-٤٣٦.

١-٢ ماهية اللغة البشرية

١-٢-١ التعريف باللغة ونشأته

١-٢-١-١ التعريف باللغة

لقد خلق الإنسان مالكاً لقدرة إحداث الأصوات وإدراكها، واستطاع بذكائه وفطنته أن يستثمر هذا الصوت ليجعل منه وسيلة التخاطب والتواصل بين أفراد جنسه، ومن ثمة أنشأ ما هو مصطلح عليه بـــ " اللغة ".

كلمة لغة مشتقة من لُغْيٌ أو لُغْوٌ؛ وهو السقط وما لا يُعتد به من كلام أو غيره ولا يحصل منه فائدة. وقيل أصلها لُغْوَة من لغا إذا تكلم، وتأتي اللغة بمعنى الميل عن الصواب، وقيل إنها أُخذت من هذا المعنى لأن أقواماً تكلموا بكلام مالُوا فيه عن كلام الآخرين فاستعملت للدلالة على مطلق الكلام[١].

في الاصطلاح، انفرد العلامة ابن جني(٣٩٢هـــ) بتعريف جامع مانع للغة في "باب القول على اللغة وما هي " من كتابه الخصائص بقوله:« أما حدها فإنها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم »[٢]؛ إذ يشير إلى الطبيعة الأولى للظاهرة اللغوية وهي المادة الصوتية، ويعتبرها المظهر الأصلي الذي بُنيت عليه بوصفها تواضعاً واصطلاحاً، ويبين أنها ذاك الجسم الرابط ما بين البشر بعضهم ببعض يعبرون بها عن أفكارهم ومختلجاتهم، الأمر الذي يؤكده أندريه مارتينيه بقوله عن اللغة إنها:« الملكة التي يستعملها البشر للتفاهم فيما بينهم بواسطة الأدلة الصوتية»[٣].

---

(١)- ينظر: لسان العرب المحيط للعلامة ابن منظور، تحقيق: الشيخ عبد الله العلايلي، إعداد البناء على الحرف الأول من الكلمة: يوسف خياط. دار الجيل- بيروت، دار لسان العرب- بيروت. ط: ١٤٠٨ه-١٩٨٨. مادة لغا، ج: ٥، ص:٣٧٣. ومحيط المحيط، بطرس البستاني. مكتبة لبنان ناشرون-بيروت. ط: ١٩٩٨. مادة لغا، ص:٨١٩ .

(٢)ـــ الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني. تحقيق: محمد علي النجار. المكتبة العلمية. لاط، لاتا. ج١، ص:٣٣.

(٣)ـــ مبادئ في اللسانيات العامة، آندريه مارتينيه، ترجمة: سعدي زبير. دار الآفاق، الجزائر، لاط، لاتا. ص:١٢.

فاللغة عنصرٌ أساسي في الحياة الاجتماعية راقية كانت أم بدائية؛ لأنها وسيلة الاتصال المباشر بين البشر بفضل الأصوات المكونة للألفاظ الدالة على المعاني، وتخلف اللغة باختلاف العصور والشعوب، وهي قابلة للتأثر بعقليات الأمم وتقاليدها واتجاهاتها الفكرية[١].

لقد امتلك الإنسان ضروباً أخرى للتعبير كالإشارات والصور..إلا أنها جميعاً لا تضاهي اللغة[٢] في الارتقاء بالحياة الإنسانية، ولا ضير في أن جعلها الشاعر الجاهلي[٣] نصف الإنسان فقال:[من الطويل]

لسانُ الفَتَى نصفٌ ونصفٌ فُؤَادُهُ فَلَم يَبقَ إلاَّ صُورَةِ اللَّحمِ والدَّمِ[٤]

فهي بذلك أرقى ما لدى الإنسان من وسائل القوة والتفرد، تربطنا بالأجيال الغابرة وتربط الأجيال التالية بنا جميعاً؛« فالإنسان صانع التاريخ، وصانعه بفعل اللغة الخاصة به والقاصرة عليه» [٥].

وقد شغلت قضية نشأة اللغة الباحثين قديماً وحديثاً، وسال حولها حبر كثير؛ إذ كان الجدل الدائر في هذا الموضوع حول: هل اللغة موروث فطـــري في الإنسان؟، أم أنها اكتساب عن تواضع ؟ أم ماذا ؟.

---

[١]— تراجع: موسوعة البحث العلمي وإعداد الرسائل والأبحاث والمؤلفات، عبد الفتاح مراد. مادة لغة رقمها: ٢٣٧٨، ص:٨٤٢ .

[٢]— اللغة بهذا المفهوم ما دلت عليه الدراسات بأن هناك لغة وحيدة في العالم هي لغة البشر والتي هي أصـــوات تجعلـــهم يتبادلون الأفكار، و التي تختلف اختلافاً جذرياً عن جميع الوسائل التي تتواصل بها المخلوقات في العالم. ينظر: اللغة بـــين النظرية والتطبيق، خالد عبد الرزاق السيد. مركز الإسكندرية للكتاب، مصر. ط: ٢٠٠٣. ص: ٣٦ -٣٧.

[٣]— هو زهير بن أبي سُلمى ربيعة بن رباح المزيني، أحد الثلاثة المقدمين على سائر الشعراء. عـــاش في القـــرن الســـادس الميلادي. يراجع الأعلام. خير الدين الزركلي. ج: ٣، ص:٥٢، ومعجم الشعراء في تاريخ الطبري، عزمي سكر. المكتبـــة العصرية، بيروت- لبنان. الطبعة الأولى:١٤١٩ -١٩٩٩، ص: ٢٠٧.

[٤]— البيت من معلقته التي مدح فيها هرم بن سنان والحارث بن عوف لمصالحتهما بين قبيلتي عَبْس وذبيان في حادثة داحس والغبراء ومطلع القصيدة:

أَمِن أُمِّ أَوفَى دِمْنَةٌ لَمْ تُكَلَّمِ بِحَومَانَةِ الدَّرَّاجِ فَالْمُتَثَلَّمِ

يراجع: ديوان زهير ابن أبي سلمى، دار صادر، بيروت. لاط، لاتا. ص: ٨٩ .

[٥]— اللغة بين النظرية والتطبيق، خالد عبد الرزاق السيد، ص: ١١.

١-٢-١-٢ نشأة اللغة البشرية

إن الحديث عن اللغة يقتضي الحديث عن نشأتها وهو الأمر الذي اضطربت فيه أقوال القدماء و المحدثين ما حدى ببعضهم إلى القول بقلة جدوى هذا البحث. ولا ضير من عرض أهم النظريات التي طرحت في ذلك[١].

أ)- نظرية المحاكاة:

يقصد بها محاكاة أصوات الطبيعة ويرى روادها أن:« أصل اللغات كلّها إنما هو من الأصوات المسموعات كدويِّ الريح وحنين الرعد وخرير الماء وشحيح الحمار ونعيق الغراب وصهيل الفرس ونزيب الظبي ونحو ذلك.. »[٢]، فيعتبرون عملية التقليد هذه البدايات الأولى لنشوء اللغة؛ والأصل في ذاك أن الإنسان « قد نَمَت فيه قوة السمع قبل قوة النطق فسمع أصوات الطبيعة حوله »[٣]، وقلدها وبدأ يستغل هذه الأصوات في حاجاته الأولية.

إلا أن هذه النظرية لا تُفسر وجود الكلمات التي تدل على المعاني المجردة عند الإنسان، زيادة على أن الكلمات التي تحاكي أصوات الطبيعة لا تمثل إلا قلة في اللغات.

ب)- نظرية التعبير الطبيعي عن الانفعالات:

يقول أصحابها إن بدايات اللغة عند الإنسان إنما كانت استجابات آليةً للألم أو الفرح أو الغضب أو الخوف..؛ بمعنى أن جميع أفراد الجنس البشري قد زُودوا باستعداد يحمل كلاًّ منهم على التعبير عن حاجاته الحسية أو المعنوية بأصوات أو كلمات مثل: (أخ) (أوه) كلما أصابته حالة انفعالية.

والظاهر أنه لا يمكن تفسير نشوء اللغة أو أكثر كلماتها من هذا الطريق، كما يفترض أن لا تختلف اللغات على هذا الأساس.

---

(١) - لأكثر تفصيل يراجع: دلالة الألفاظ، إبراهيم أنيس. مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة الثانية: ١٩٦٣. ص: ١٣ وما بعدها.

(٢) - الخصائص، عثمان بن جني. ج١، ص: ٤٦-٤٧.

(٣) - الأصوات اللغوية، إبراهيم أنيس. ص: ١٣.

ج)-نظرية الإلهام (الوحي):

يحتج أصحابها بأن الله عز وجل علّم آدم أسماء جميع المخلوقات، واستدلوا على كلامهم بقوله تعالى:﴿ وَعَلَّمَ ءادَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾[1]، وهم بهذا يَنفُون أن تكون للإنسان يدٌ في وضع ألفاظ اللغة وتراكيبها، بل يذهبون إلى أن المولى جل شأنه ذمَّ الذين سمَّوْا أسماءً من عندهم في قوله:﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وءَابَاؤُكُم مَّآ أَنزَلَ اللهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ﴾[2]. إلا أن الباحثين ومنهم الدكتور إبراهيم أنيس في كتابه دلالة الألفاظ يرون أن القائلين بتلك النظرية أكثر أدلتهم نصوص نقلية يفسرونها على حسب أهوائهم ليستنبطوا ما يؤيد رأيهم منها[3].

د)-نظرية الإصلاح والتواضع:

إن اللغة مبتدعة مستحدثة متفق عليها حسب هذه النظرية، من منظور أن الإنسان يتعايش مع بني جنسه الأمر الذي يلزمه التواضع والاصطلاح معهم على وسيلة تكون رابطة بينهم فكانت اللغة، يقول ابن سينا[4](٤٠٨هـ):« لما كانت الطبيعة الإنسانية محتاجة إلى المحاورة لاضطراها إلى المشاركة والمحاورة، انبعثت إلى شيء يُتوصل به إلى ذلك فمالت الطبيعة إلى استعمال الصوت.»[5].

---

(١)- سورة البقرة، الآية ٣٠.

(٢)- سورة النجم، الآية ٢٣.

(٣)- ينظر: دلالة الألفاظ. ص: ١٦-١٧.

(٤)- هو الحسين بن عبد الله بن سينا أبو علي، فيلسوف صنَّف في الطب والمنطق والطبيعيات ولد في بخارى عام ٣٧٠هـ-٩٨٠م، طاف البلدان وناظر العلماء توفي في همذان سنة ٤٠٨هـ- ١٠١٧م، من مؤلفاته: المنطق، أسرار الحكمة المشرقية، أسباب حدوث الحروف، والشفاء... يراجع : الأعلام خير الدين الزركلي. ج:٢، ص: ٢٤١.

(٥)- العبارة (الشفاء) لابن سينا. تحقيق: محمد الخضيري- القاهرة، ط:١٩٧٠ ص: ١- ٢، نقلاً عن: مباحث في اللسانيات أحمد حساني، ص: ١٤١. ويراجع المزهر في علوم اللغة وأنواعها. عبد الرحمن جلال الدين السيوطي. تحقيق وضبط وتعليق: محمد أحمد جاد المولى، علي محمد البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم. دار الفكر. لا ط، لا تا. ص ١٨-١٩.

وما يمكن الخلوص له هو أن لغة الإنسان إنما نشأت محاكاةً لأصوات الطبيعة والأصوات الدالة على الانفعالات لتتطور ويتسع نطاقها بفعل العقل البشري الراقي وبفعل الحاجة التي تعود إليها الحياة الاجتماعية[1] لتصبح وسيلة ذات قواعد وأصول تحقق للبشر التواصل فيما بينهم.

١-٢-٢ خصائص اللغة البشرية

إن اللغة البشرية من حيث هي نظام صوتي يتواصل به الناس تتميز عن مجمل ما يُطلق عليه لغة (كلغة النمل، ولغة الورود،..) بطبيعة تَمَيّز مستعمليها عن باقي موجودات العالم، ومن أهم خصائصها:

أ)- الطابع الصوتي:

يشترك الإنسان مع كثير من أفراد المملكة الحيوانية في صفة التصويت، إلا أنه يتميّز بقدرته على إنتاج أصوات يسوقها في نظام محدد يحقق من خلالها تواصلاً فريداً مع أفراد جنسه، وليست تلك الأصوات إلا ترجمة لأفكاره ومشاعره وأحاسيسه. هذا الطابع الصوتي الذي تتصف به اللغة لا يعد خصيصة لها في فترة زمنية معينة وحَسْب، إنما هو ميزة لازمة لها عبر السنين، يقول أندريه مارتينيه:« إن أدلة اللسان البشري هي أساساً صوتيةٌ، وإن هذه الأدلة كانت منذ آلاف السنين صوتية، وإنه حتى يوم الناس هذا يعرف البشر في أغلبيتهم الحديث دون القراءة، ونحن نتعلم الكلام قبل أن نتعلم القراءة.»[2] ؛ فالأصوات التي يعبر الناس عن حوائجهم بنظام معين هو ما نسميه " اللغة ".

ب)- الاكتساب والاجتماعية:

إن كل فرد يمكنه اكتساب لغة المجتمع الذي يعيش فيه بكل يسر وسهولة بشرط سلامة جهازه السمعي والنطقي والعقلي، ومن غير المعقول أن لا يكتسب الفرد لغة مجتمعه لأن تعلم هذه الوسيلة ضمان لبقائه؛ إذ إنه « وحده لا يستقل بجميع حاجاته، بل لابد من التعاون وما

---

[1]- يراجع: اللغة بين النظرية والتطبيق، خالد عبد الرزاق السيد. ص: ٢٧ وما بعدها، والأصوات اللغوية، إبراهيم أنيس. ص: ١٣-١٤.

[2]- مبادئ في اللسانيات العامة، أندريه مارتينيه. ص: ١٣.

التعاون إلا بالتعارف ولا التعارف إلا بأسبابٍ كحركاتٍ أو إشاراتٍ أو نقوشٍ أو ألفاظٍ تُوضع بإزاء المقاصد.. »[1] .

ومن جهة أخرى يؤكد الباحثون على أن الإنسان لن يشعر بالحاجة إلى استعمال اللغة إلا إذا كان على علاقة بالمجموعة المحيطة به، هذا المجتمع الذي تُعتبر اللغة أولى دعائمه، ما جعل أندريه مارتينيه يصفها بالمؤسسة البشرية بقوله:« إننا نميل إلى تصنيف اللغة من المؤسسات البشرية... فالمؤسسات البشرية (أو الأنظمة البشرية) ناجمة عن العيش في المجتمع وهذا ما ينطبق على اللغة»[2] .

ج)- الاختلاف:

إن اللغات تختلف باختلاف الجماعات نظراً لاختلاف التفكير والقيم السائدة في المجتمع، والعادات، والأعراف،... ؛ فلغة الإنجليزي ليست هي لغة العربي، وهذه ليست لغة الفارسي وإن كان ما استعملت لأجله شيئٌ واحدٌ وهو التواصل.

والواقع أن الاختلاف في اللغات مردُّه إلى أنظمة اللغة الصوتية والنحوية والتركيبية؛ فوجود أصوات في لغة وانعدامها في أخرى، وتباين الأنظمة النحوية... - لا شك- تعد أسباباً لاختلاف اللغات البشرية.

د)- التطور:

على الرغم من دقة وصرامة الأنظمة اللغوية والتي يفترض بها أن نصف اللغة بالقرار والثبات إلا أنه قد يعتريها في أصواتها وألفاظها وتراكيبها التبدل والتحول نتيجة تجدد واتساع الأفكار على مر الأيام وتقلب العصور.

إن تطور اللغات ظاهرة شائعة يتحكم فيها عاملان أساسان أولهما: استعمال اللغة في حد ذاتها؛ إذ ما يفتؤُ هذا الاستعمال يتخلله سوء الفهم أو ابتذال الكلمات واستهجانها، كما لا مَناص فيه لموت الألفاظ وبِلاها، ما يترتب عنه ألفاظ ودلالات جديدة، وهذا الجانب عفوي

---

(1)- المزهر في علوم اللغة وأنواعها، للسيوطي. ص: ٣٨.

(2) - مبادئ في اللسانيات العامة، أندريه مارتينيه. ص: ١٤.

لا يستند إلى ضوابط أو توجيهات، وتتم العملية التطورية وِفْقَه في زمن طويل وتُعزى إلى المجتمع جميعه.

ثانيهما: الحاجة إلى تجديد التعبير وتنمية اللغة موازاة مع التطور الاجتماعي والاقتصادي والفكري الذي تعرفه حياة الناس، وهو جانب مقصود يتم عادة على أيدي الموهوبين من الشعراء والأدباء أو يُسند إلى المجامع اللغوية أو الهيئات العلمية.[1]

هـ)- الإبداعية:

أكثر ما تتميز به لغة الإنسان هو أنه بتوظيفه مجموعة محدودة من الأصوات يمكنه إنتاج ما لا حصر له من الجمل والتراكيب يقول مارتينيه: « إن قائمة كلمات لسان ما هي في الواقع قائمة مفتوحة... وعلى العكس من ذلك فإن قائمة صويتات لسان ما هي قائمة مغلقة»[2]. والإبداعية في اللغة خصيصة قاصرة على الجنس البشري وحده، بناءً على رقيه العقلي، يقول نوام تشومسكي:« إن اللغة الإنسانية تتجلى عبر مظهر استعمالها الإبداعي في القدرة الخاصة على التعبير عن أفكار متجددة وعلى تفهُّم تعابير أيضاً متجددة »[3] .

١-٢-٣ وظائف اللغة

يستعمل الناس اللغة بشكل عفوي يعبرون بها عن حوائجهم في مختلف الجوانب المعيشية دونما إدراك منهم للدور الذي تؤديه اللغة في حياتهم أو بالأحرى وظيفتها.

تُعرف اللغة - في العادة - بأنها أداة تبليغ الأفكار والتعبير عن الخوالج[4]، كأصل للوظائف التي تؤديها؛ فالإنسان بعيشه وسط المجتمع إما أن يعبر عن أحاسيسه ومشاعره من رغبة أو خوف أو غضب أو فرح .. بوساطة اللغة، وإما أنه يبلغ أفكاراً للمحيطين به بوساطة هذه اللغة أيضاً.

لقد نظر العلماء إلى وظائف اللغة من زوايا مختلفة، فمنهم من قصرها على التبليغ والتعبير، ورأى أن الوظائف الأخرى فروع عن ذاك الأصل، ومنهم من زاد على التبليغ والتعبير

---

(١)- يراجع: دلالة الألفاظ. ص: ١٣٤ وما بعدها. وفقه اللغة وخصائص العربية، محمد المبارك. ص: ٢٠٧ وما بعدها.

(٢)- مبادئ في اللسانيات العامة، أندريه مارتينيه. ص:٢٣-٢٤ .

(٣)- اللغة بين النظرية والتطبيق، خالد عبد الرزاق السيد. ص: ١٤٥.

(٤)- ينظر: محاضرات في علم النفس اللغوي، حنفي بن عيسى. ص: ٨١، ٨٥.

وظائف أخرى، وقد حصرها(أي الوظائف) رومان جاكبسون في ستة هي[1]:

١) **الوظيفة التعبيرية أو الانفعالية:**

فاللغة تستعمل للتعبير عن المكمونات والأحاسيس، والانفعالات، وهي بذلك تُوضح موقف المتكلم مما يتحدث عنه.

٢) **الوظيفة الندائية:**

تسمى الإنشائية أيضاً، وعلى أساسها يتمكن المرء من ربط علاقة مع غيره، فيثير الانتباه بأمر، أو طلب، أو غيرهما.

٣) **الوظيفة المرجعية:**

يستطيع الإنسان باللغة تبادل الآراء مع الغير، ويشعرهم بالأفكار التي في ذهنه.

٤) **الوظيفة الاتصالية:**

اللغة إذ ذاك تؤمن لنا إقامة علاقات مع الناس وتبادل المعلومات معهم.

٥) **وظيفة تعدي اللغة:**

إننا نتحدث عن اللغة باللغة، وبهذا يمكننا من تسمية عناصر اللغة وتعريف المفردات وفهم نظام اللغة باللغة ذاتها.

٦) **الوظيفة الشعرية:**

تستعمل اللغة للتعبير عن قيم دلالية عميقة نصورها في الفنون والأشعار والآداب.

ومهما يكن فإن اللغة البشرية هي أداة تواصل الناس فيما بينهم، تضمن لهم بقاءهم وقوتهم ونطورهم، ولم يتوارث البشر شيئاً قطُّ كتوارثهم اللغة، فهم مهيؤون عضوياً واجتماعياً ونفسياً لاكتسابها.

---

[1] -ينظر: الألسنية (علم اللغة الحديث) المبادئ والأعلام، ميشال زكرياء. المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع،لا ط ، لا تا، ص: ٥٣- ٥٤ .

١-٢-٤ كيف يتعلم الإنسان اللغة؟

يقول المولى عز وجل في الكتاب الكريم: ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [١]، وجاء في تفسير هذه الآية أن الإنسان يولد غير عالمٍ شيئاً من حقِّ المنعم الذي خلقه في البطن و سواه وصوره ثم أخرجه من الضيق إلى السعة و زوده بآلات لإزالة الجهل الذي ولد عليه ليجتلب العلم ويعمل به[٢].

إن المولى عز شأنه زود الإنسان بآلة يسمع بها الأصوات، وأخرى يبصر بها المرئيات وتلك يشمّ بها الروائح... فيرسل هذه الظواهر والمعلومات إلى العقل تترجم وتحلل وتفهم، ومع ذلك يبقى في أمسِّ الحاجة إلى تعلم وسيلة تمكنه من التواصل مع غيره وتحقيق الاجتماع البشري فكانت اللغة.

إن عملية الكلام عند الإنسان صناعة بيولوجية واجتماعية وحضارية ونفسية وفطرية[٣] أملتها الطبيعة التكوينية لجهازه النطقي، والتي تدفعه لاكتساب لغة مجتمعه في يُسر وسهولة وفي مدة وجيزة. وعلى العكس فليس بمقدور أي إنسان الامتناع عن اكتساب لغة قومه حتى وإن كان متخلّفا عقلياً - بشرط سلامة جهازه السمعي والكلامي-، إلا أن امتلاك ناصية اللغة لا يتم بصورة تلقائية عفوية، إنما هو خاضع لآليات وضوابط يتحدد بها ذاك الامتلاك[٤].

يتدرب الطفل لوقت طويل حتى يستطيع اكتساب العادات اللفظية، وكيفية الكلام على الوجه الأمثل، بتطبيق القواعد التي ينبني عليها نظام اللغة وإدراك القيم الوظيفية لتلك القواعد، ما

---

[١]- سورة النحل، الآية ٧٨.

[٢]- يراجع: الكشاف، للزمخشري. ج: ٢. ص: ٢٣٨- ٢٣٩.

[٣]- تذهب النظرية اللسانية التوليدية التحويلية إلى الاعتقاد بأن للإنسان قدرات فطرية على درجة عالية من الاختصاص، يتوقف عليها النمو الإدراكي وبالتالي إنجاز العملية اللغوية. يراجع، اللغة بين النظرية والتطبيق، خالد عبد الرزاق السيد. ص: ١٧٥، واللغة والتواصل لدى الطفل، أنسي محمد أحمد قاسم. مركز الإسكندرية للكتاب، ط: ٢٠٠٢. ص: ٥٦.

[٤]- إن النمو الجسمي والحوا سي السليم وجنس الطفل وعمره (عوامل بيولوجية)، وعلاقته بأمّه والمحيطين به (عوامل نفسية)، والمستوى الاجتماعي والاقتصادي... كلها ذات تأثير بالغ على نمو الحصيلة اللغوية عند الطفل. ينظر: المصدران نفسيهما على التوالي، ص: ١٠٧. و ص: ١٥١ وما بعدهما.

يؤكده الدكتور حنفي بن عيسى بقوله عن اللغة أنها:« لا تكتسب بصورة تلقائية وليست هبة يضيفها الإنسان إلى ما يملكه بدون مشقة ولا تكلف جهد... فلابد إذن من التدرب على النطق والتعلم لكيفيات التكلم، ولابد من مرور وقت ليس بالقصير قبل أن يتوصل الطفل إلى طريقة يرضى عنها الناس »[1]. ويقسم الباحثون زمن اكتساب لغة إلى مرحلتين[2]:

١) **مرحلة سابقة للغة:** تكون بمثابة استعداد للتحصيل اللغوي وتتقسم إلى:

أ- فترة الصراخ: تعتبر الصرخة الأولى للطفل عند ولادته بادرة لدى أهل العلم على دخول الوليد عالم الكلام لقدرته حينها على إحداث ذلك الصوت، وهي دليل على امتلاك الآلة التي يُحَصَّل بها.

يستخدم الطفل الصراخ للتعبير عن وجوده، وهو مظهر عفوي يمثل انعكاساً للإحساس بالجوع أو العطش أو الانزعاج أو الغضب... وحتى وإن كانت هذه الانعكاسات لحالات داخلية فسيظل الصراخ ضرورياً لتأسيس نظم اتصال مع المحيط اللغوي فيما بعد.

ب- مرحلة المناغاة: يختلف الباحثون في تحديدها، ويتخذها الطفل غاية في حد ذاتها لا وسيلة يعبر بها عن مرادٍ ما، وهي« لغة عفوية أوجدها الطفل بمعزل عن كل فهمٍ وتقليدٍ للآخرين »[3] يجد فيها متعة وسعادة بإصدار أصوات وسماعها.

وحقيقة المناغاة أنها تدريبٌ لجهاز النطق وتعويدٌ له على التلفظ، ويمكن اعتبار فترة المناغاة أرضية أو مقدمة لمرحلة لاحقة هي مرحلة تقليد الأصوات.

ج- تقليد الأصوات المسموعة: يبدأ الطفل في هذه المرحلة بتقليد ما يستطعه مما يسمعه من الأصوات خاصة البشرية[4]، فيخترع كلمات من صنعه يكون للراشد الدور الكبير

---

(١)- محاضرات في علم النفس اللغوي. ص ١٤٢.

(٢)- يراجع: المصدر نفسه. ص :١٤٢. و اللغة والتواصل لدى الطفل، أنسي محمد أحمد قاسم. ص: ١٠٣. و ص : ١٣٢.

(٣)- اضطرابات اللغة، ديديه بورو. ترجمة: أنطوان إ- الهاشم. دار عويدات للطباعة والنشر، بيروت - لبنان، ط: ٢٠٠٠. ص: ٢٢.

(٤)- يستطيع الطفل تقليد أصوات بعض الحيوانات و بعض الجمادات عند السقوط أو الاصطدام، وتقليد صوت السيارة أيضاً...

عند تقليدها في تشجيع الطفل على تقليد الأصوات. ثم ما يلبث هذا التقليد أن ينقلب من الراشد للطفل إلى الطفل للراشد، ليصبح قادراً على التلفظ بكلمات صادرة عن الكبار وتكرارها ويسجن نفسه صوتياً[1] في النطق بالكلمة والسماع لها حتى يتعود عليها جهازه النطقي (لأنه قد لا يكون قادراً على إدراك معاني كل الكلمات في هذه المرحلة).

٢) المرحلة اللغوية بأتم معنى الكلمة:

تشهد هذه المرحلة انبثاق ملكة اللغة عند الطفل والسير في الاستيلاء عليها وتتقسم هي الأخرى إلى:

أ- تعلم المفردات:

بعد أن يكون الطفل قد مرَّن جهازه الكلامي لإصدار الأصوات يبدأ في اكتساب المستوى الثاني من مستويات اللغة وهو الجانب المفرداتي وفهم دلالات الكلمات. ويتمكن الطفل من التعبير عن خوالجه وحالاته الانفعالية بالمفردات الدالة على ذلك، وإن كان ما تتصف به هذه المرحلة هو إحلال الكلمة محل الجملة اعتماداً على الإشارة، كأن يقول: (ماما) ويشير إلى شيء ما. ويبقى على الأم تأويل مراده؛ هل يريد المشار إليه ؟، أم أنه خائف منه، أم أنه يتحرك، وإلى ما هنالك..

ويذهب الباحثون إلى أن أول ما يتعلمه الطفل من المفردات هو الأسماء، وخصوصاً أسماء المحيطين به من الأشخاص و الأشياء، ثم الأفعال فالضمائر والنعوت وبعض أحرف الجر[2].

ونشير إلى أن الأطفال يفهمون اللغة أكثر مما يتحدثون، كما أنه لا ينبغي الربط بين فهم اللغة وعدد الكلمات التي يمكن للطفل التلفظ بها.

ب- تركيب الجمل:

إن اللغة مضبوطة المستويات لا يمكن خرق نظامها، فمن غير المعقول تشكيل الجمل دونما معرفة بالمفردات، ومعرفة المفردات مُؤَسس على نطق الأصوات وعليه؛ فبعد أن يؤمّن

---

(١)- السجن الصوتي: يُطلق عليه العلماء اسم الاستجابة الدائرية، فالطفل مولع بالتلفظ بالكلمة والسماع لها وإعادتها وسماعها حتى تترسخ في ذهنه، ويمكن القول إن الطفل تعلم الأصوات حين تتكون عنده تلك المنعكسات الدائرية (صوت أذن. صوت أذن...). يراجع: محاضرات في علم النفس اللغوي. ص:١٥١.

(٢)- يراجع: المصدر نفسه. ص: ١٥٢ وما بعدها.

الطفل لنفسه قدراً من المفردات يصبح قادراً على نظم الجمل بتقليد المحيطين به - قد تكون جمله ناقصة نحوياً ودلالياً -، ومع نمو مداركه العقلية يستطيع تأليف الجمل من إنشائه الخاص، يقول العلامة ابن خلدون(٨٠٨هـ):« يسمع الصبيّ استعمال المفردات في معانيها فيلقّنُها أولاً ثم يسمع التراكيب بعدها فيلقّنُها كذلك. ثم لا يزال سماعه لذلك يتجدد في كل لحظة ومن كل متكلم واستعماله يتكرر إلى أن يصير ذلك ملكةً وصفةً راسخة»[١].

والجدير بالذكر هنا أن عملية اكتساب اللغة لا تتم في فترة زمنية محددة يصبح بعدها الشخص عارفاً بجميع نُظُم اللغة، بل يبقى اكتسابه مؤسساً على قدراته الفكرية والمعرفية، بمعنى أنه كلما اتسعت دائرة مدركات الشخص ومعارفه وتجاربه ازدادت معرفته باللغة.

إن تحصيل ملكة اللغة والتغلب على صعوبات استعمالها ينبني على حفظها وممارستها، فالحفظ يوفر للإنسان كماً زاخراً من مفردات اللغة وأنظمتها التركيبية والدلالية. والممارسة هي حركة تجديديةٌ إحيائيةٌ تَحِيد باللغة عن الموت والاندثار، يقول العلامة ابن خلدون (٨٠٨هـ) في هذا الشأن:« ووجه التعليم لمن يبتغي هذه الملكة[٢] ويروم تحصيلها، أن يأخذ نفسه بحفظ كلامهم القديم الجاري على أساليبهم من القرآن والحديث وكلام السلف، ومخاطبات فحول العرب قي أسجاعهم وأشعارهم، وكلمات المُوَلَّدين في سائر فنونهم... فتحصل له هذه الملكة بهذا الحفظ والاستعمال»[٣].

والظاهر أن امتلاك اللغة إنما هو امتلاك للتفكير، والأفراد بعيشهم في المجتمع وتبادلهم الخبرات والمهارات إنما يتبادلون الأفكار و يسهمون في تطويرها فيحققون التواصل الإنساني.

---

[١]- مقدمة ابن خلدون. ص: ٤٧٧.

[٢]- يقصد العلامة بالملكة هنا اللسان العربي، إلا أن الأمر ينطبق على جميع اللغات.

[٣]- المصدر نفسه. ص: ٤٨١.

١-٣ اللغة والتواصل الإنساني

كثيراً ما نتذاكر أخبار السلف للوعظ أو الاستدلال أو اللهو أو غيرها، ونحن إذ ذاك إنما نتواصل مع تلك الأجيال رغم اندثارها.

وحينما نستقصي المسألة نجد أننا نعيش أحاسيس ومهارات وأفكار سابقينا من خلال قراءة موروثهم الحضاري، والذي انتقل إلينا بوساطة تلك الوسيلة الفريدة عند بني الإنسان وهي اللغة.

هذه اللغة التي بمجرد أن يبدأ الطفل في اكتسابها يكتسب معها معارف وخبرات مجتمعه، وبالعقل يستطيع تطوير تلك المعارف والخبرات وتفعيلها، فهو بذلك الكائن المفكّر.

١-٣-١ اللغة والفكر

أثارت قضية اللغة والفكر جدلاً بين الدارسين يتلخص فيما إذا كانت اللغة سابقة للتفكير أم التفكير سابقٌ لها، أم نشأا معاً. ولضبط المسألة يجدر بنا في البدء الوقوف على تعريف للفكر.

الفكَر في اللغة من فَكَّر يُفكِّر فِكْراً وفَكْراً، وهو اسم دال على إعمال النظر والتفكير، والفكر تردد القلب بالنظر والتدبر بطلب المعاني[١].

ويعرفه- أي الفكر- علماء النفس بقولهم:« التفكير هو معالجة ذهنية لعناصر العالم المحيط بالإنسان»[٢].

إن عملية التفكير تقوم في أساسها على اللغة، فالطفل لكي يدرك المظاهر من حوله لابد أن يعرف مسمياتها ليفهم نقاط الاشتراك و الاختلاف فيما بينها ويقوم بتجريدها وإعمال النظر فيها، والوصول إلى القوانين التي تحكمها. يقول حنفي بن عيسى:« اللغة تقدم للفكر تعاريف جاهزة، وتصف الأشياء بخصائصها حتى لا تتداخل مع غيرها، وتساعد المفكر في عمله؛ إذ تزوده بصيغ وتعاريف معروفة، وتضع تحت تصرفه أساليب مدروسة »[٣].

---

(١)- يراجع: محيط المحيط، بطرس البستاني. ص: ٦٩٩.

(٢)- اللغة بين النظرية والتطبيق، خالد عبد الرزاق السيد. ص : ١١٦.

(٣)- محاضرات في علم النفس اللغوي. ص: ٧٨.

واللغة هي الوسيلة التي يمكن لنا بها تبادل الأفكار والرؤى وتنميتها وإخراجها من الستر إلى الكشف والبيان، وهي مظهر لتفكيرنا ومصدر لخبايا أنفسنا واختلاجات صدورنا، لولاها لبقي الفكر خامداً مخفياً محجوباً، قال الجاحظ(٢٢٥هـ): « قال بعض جهابذة الألفاظ ونُقاد المعاني: المعاني القائمة في صدور الناس المتصورة في أذهانهم والمختلجة في نفوسهم، والمتصلة بخواطرهم والحادثة عن فكرهم، مستورة خفية، وبعيدة وحشية، ومحجوبة مكنونة، وموجودة في معنى معدومة، لا يَعرف الإنسانُ ضمير صاحبه ولا حاجة أخيه وخليطه ولا معنى شريكه والمعاون له على أموره... وإنما يحيي تلك المعاني ذكرهم لها»[١].

هذا وإن للفكر أثراً بالغاً في اغناء اللغة وإثرائها بما يبدعه عقل الإنسان وما يطوره، كما أننا بالفكر نحدد استعمالنا للغة بحسب مقامات الخطاب فننظر في مدى ملاءمتها لذلك.

إن اللغة والفكر[٢] يكمّلان بعضهما ويفعّل كل منهما الآخر، ليسيرا معا من أجل القيام بالبشرية. ومع ذلك فاللغة تعكس تفكير الأقوام ورقيهم وحضاراتهم وتبسط ثقافاتهم. وليس من المبالغة إذا قلنا إن ثراء اللغة وجودتها هو ثراءٌ وجودة للفكر وبالتالي رقيٌّ للمجتمع، وبالعكس فإن انحصار اللغة هو انحصار للفكر وسقمٌ له.

١-٣-٢ اللغة والمجتمع

ذكرنا فيما سبق أن اللغة نظام من أنظمة البشر وسلوك من سلوكاتهم، وعرفنا أن اللغة تقوم بأفكار الجماعات فترقى الجماعات بها.

إن اللغة عامل من عوامل الحفاظ على المجتمع؛ ليس لشيء إلا لأنها وسيلة حفظ الثقافة[٣] وتوارثها، ولنا في اللغة العربية أجود مثال على ما قلنا؛ فمنذ مئات السنين مثّلت

---

(١)- البيان والتبيين. ج: ١، ص: ٧٥.

(٢)- « لا يوجد حتى الآن بيان شامل للعلاقة بين اللغة والفكر، وكل ما لدينا هو عدد كبير من وجهات النظر والتأملات التي تقوم على أساس دلائل البحوث التي يصعب جداً جمعها، ووجهات النظر هذه متباينة على مدى في غاية الاتساع ». علم النفس بين الشخصية والفكر، كامل محمد محمد عويضة. دار الكتب العلمية ، بيروت- لبنان. الطبعة الأولى: ١٤١٦هـ-١٩٩٧م. ص: ١٥٧- ١٥٨.

(٣) - الثقافة في اللغة من ثقف بمعنى حذق وفطن، ويراد بهذا المصطلح معان مختلفة باختلاف العلوم؛ ففي علم الاجتماع والأنثروبولوجيا هي البيئة التي خلقها الإنسان بما تحويه من منتجات مادية وغير مادية يتوارثها جيلاً بعد جيل. وفي العلوم =

العربية مجتمعاً كثيراً ما عُرف برقيِّ لغته، وسعة نتاجه بها، ولازالت إلى اليوم حلقة وصل تربط الماضين من أبنائها بأهل الحاضر.

ولنا أن نقول أيضاً إن المجتمع العربي ما يزال حياً بحياة لغته وقيامها به، انطلاقاً من مكانتها في قلوب وعقول العرب أنفسهم، وما حُفت به من العناية الإلهية، على نقيض كثيرٍ من المجتمعات التي انهارت بسبب سهولة اصطيادها من لغاتها نظراً لما اتصفت به من الفقر اللغوي[1] ورضيت بالْتماس العون من لغة أو لغات أخرى كانت السبب في طمس هويّاتها؛ فلم نعد نسمع -مثلاً- باللغة القُبطية[2] إلا في بعض الطقوس الدينية لغلبة العربية على ألسن القبط عندما وجد هؤلاء فيها من الحضارة ما يلهيهم عن لغتهم. والفتوحات التي قام بها الرومان في شرق أوروبا وغربها ووسطها جعلت لغتهم اللاتينية تتغلب على اللغات الأصلية لبلاد الجول وإيطاليا واسبانيا والأرض الوسطى (فرنسا)[3]... لما تمتعت به من الرقي المعرفي والفكري، ما جعل تلك المجتمعات تنصبغ بلغة المجتمع الغالب. وعلى ذلك قال أحد فلاسفة اليونان وهو ديموقراطيوس: « إن الذي يفقد لغته يمزق الخيط الذي يصله بالأجداد، ويفقد حلقات ماضية، ويشعر بفجوة

= الأدبية تعني الثقافة الموروث الأدبي والمسرحي والفني بصورة عامة. ينظر: موسوعة البحث العلمي وإعداد الرسائل والأبحاث والمؤلفات، عبد الفتاح مراد. مادة ثقافة، رقمها: ١١٠٧. ص: ٤١١.

(١)- نعني بالفقر اللغوي ضيق المدرج الصوتي والصرفي (المفرداتي) – خاصة – للغة ما؛ فكثير من اللغات تحيا مجتمعاتها حياة بسيطة أي إن عاداتهم وأفكارهم ومعارفهم بسيطة فتكون لغتهم بسيطة فقيرة إذا ما قورنوا بمجتمعات متحضرة، يُقوِّمُها الدين والآداب والاقتصاد والسياسة والتطور العلمي... والتي تكون لغاتها زاخرة بالمفردات الدالة على المعارف ما يضمن لها القوة فالبقاء.

(٢)- اللغة القُبطية: تنتمي إلى الفصيلة الآفروأسيوية (مصطلح أطلقه العالم الأمريكي جرينبرج Greenberg ليدل على اللغات التي تتوزع في المنطقة الواقعة بين جنوب وغرب آسيا وشمال وشرق إفريقيا)، أصبحت اللغة القبطية منذ القرن الثالث الميلادي لغة الحياة اليومية في مصر إلى جانب اللغة اليونانية (لغة الطبقة الحاكمة آنذاك) حتى مجيء العرب الفاتحين عام ٦٤٢م، فبدأت تفقد مكانتها أمام العربية واختفت من الحياة اليومية و لم تعد إلا لغة الشعائر الدينية الكنائسية فقط. للقبطية اثنان وثلاثون (٣٢) حرفاً تأثرت في بعضها باليونانية والتي اقتبست منها ألفاظاً وتعابير كثيرة. ينظر: معجم اللسانيات الحديثة، سامي عياد حنّا- كريم زكي حسام الدين- نجيب جريْس. مكتبة لبنان ناشرون، بيروت- لبنان. الطبعة الأولى: ١٩٩٧. ص: ٣١.

(٣)- عن محاضرة ألقاها الأستاذ عبد الرزاق حاند على طلبة السنة الثانية لعلوم اللسان العربي بجامعة أدرار، يوم السبت ٠٥ محرم ١٤٢٣هـ الموافق لـ: ٠٨ مارس ٢٠٠٣ بعنوان " الصراع اللغوي ".

عميقة في تطور ينقطع عن أصله... وإن الأمم المغلوبة التي تفقد لغتها تندمج وتذوب في جنس اللغة الغالبة»[1].

هذا« وقد قيل إن كلام المرء أكثر أنواع نشاطه تعبيراً عن شخصيته، فإذا أردنا أن نتعرف على شخصية شخص من الأشخاص، فما علينا إلا أن نطالع ما كتب أو أن نسمع إليه يتحدث»[2]: فسليم اللغة المُبين بها لاشك سليمُ النفس، أما مضطربها ومريضها ما يلبث قليل الهيبة ساقطاً في الناس تتقاذفه الأفواه من هنا إلى هناك.

لذا فلسان الإنسان هو أداة الرفعة وإبراز المكانة وبسط النفوذ، وهو ذاته مورث الدناءة والهوان وسط المجتمع.

---

(1) ـ مجلة الأصالة- الدين واللغة-. عدد ٦٥، ص: ١٠٦. نقلاً عن: المسار الجديد في علم اللغة العام. وليد سعد مراد. مطبعة الكواكب، دمشق. الطبعة الأولى: ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م. ص: ٤٢.

(2) ـ محاضرات في علم النفس اللغوي. ص: ٩١.

تقويم عامّ:

إننا في سوقنا لهذا المطالب والتي علمنا من خلالها أن الإنسان مجبول على التصويت لامتلاكه الآلة التي يُتأتى بها ذلك، وأنه يستعمل الأصوات في أنظمة معقدة لِينشأ ما يسمى باللغة التي جعل منها بناءً على رقيه العقلي وسيلة الربط بينه وبين بني جنسه على تعاقب الأجيال، وأداة تعبير عن أفكاره وأحاسيسه ونظرته للعالم من حوله، والتي تتميز- أي اللغة — عن سائر وسائل الاتصال بين مخلوقات العالم، لتميز مستعمليها عن تلك المخلوقات، تلك اللغة التي أتاحت للإنسان التفكير والإبداع فالسمو بالمجتمعات وتخليد الأشخاص.

إن سوقنا لذلك كله إنما أردنا به توضيح مكانة اللغة من الإنسان، وأنه لولاها ما تميز عن باقي أفراد مملكة الأحياء؛ إذ بها صنع التاريخ ودَوَّن الثقافة وأنشأ الآداب والفنون ورسم الخطى لنفسه قدماً للارتقاء بالإنسانية.

غير أن الإنسان في سلوكه وتصرفاته يعتوره الخطأ وينتابه التقصير ويلحقه النسيان وما أشد ذلك حين يظهر في اللغة التي يعض الناس بنواجذهم عليها لَيْلاً تُصاب بالأمراض والعلل التي تجعلها قاصرة عن أداء وظيفتها التبليغية التواصلية.

ولا شك أن الإنسان منذ القدم عرف ما قد تصاب به اللغة من الأمراض والعيوب التي تهدد استعماله لها في بيانٍ وفصاحةٍ، وتَقْصُر به عن العيش وسط مجتمعه العيش السَّوِي، والسؤال المطروح: هل عالج العرب القدماء هذه المسالة؟. وما النظرة التي رمَوا بها العلل اللسانية سيما وأنهم اشتهروا برقي لغتهم وجودتها حتى أنزلت عليهم معجزة من السماء من جنس ما نبغوا فيه؟، بل لنقل: هل كان للعرب إسهام في دراسة المرض اللغوي؟ فإن كان الجواب نعم، ما دليل ذلك؟.. هذا وغيره ما سيحاول الفصل التالي البتَّ فيه.

الفصل الثاني

البحث في علل اللسان وأمراض اللغة عند العرب

تمهيد:

عرف الناس منذ القدم ما قد يصاب به المتكلمون من العيوب والعلل التي تجعلهم قاصرين عند أداء وظيفة اللغة التواصلية، ولا أدل على ذلك من ذكر القرءان للعقدة التي كان يعاني منها النبي موسى عليه الصلاة والسلام؛ إذ قال المولى عزّ وجلّ على لسانه: ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾[1].هذه الآفات التعبيرية كانت وما تزال محل استكراه وإستهجان بل وذم من قبل الأسوياء، فقد ذم فرعون النبي موسى على العقدة التي أصابته، ووصفه بغير المبين، قال تعالى على لسانه:﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾[2] .

نفهم من هذا أن الناس ينبذون كل أشكال الخطل والانحراف والزيغ عن قانون اللغة إن عمداً وإن سهواً وإن اضطراراً. لا بل ويرمون المخطئ بالعيب والنقص وقلة المروءة. وكم يكون الأمر أشد إيلاماً عندما يأتي ممن يخالط أقواماً عرفوا بجودة اللغة والبيان بها كالعرب.

لقد بلغ العرب في الاهتمام بلغتهم والانصراف لها مبلغاً عظيماً حتى صارت وسيلة الرفعة والشرف والهيبة، وسلاحاً للنصر في الحروب، وأداة للتعبير عن الخوالج بأحسن وجوه الأداء، يشهد لهذا قول ابن قتيبة[3] (٣٢٢ هـ):« إنه ليس في الأمم أمة أوتيت من العارضة والبيان واتساع المجال ما أُوتِيَهُ العرب.. »[4] . وعلى ذلك نزل عليهم كلام الله المعجز من جنس لغتهم؛ قال تعالى:﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[5]؛ نزل عليهم ليتحداهم من جهة، وليشهد لهم بالبيان من جهة أخرى بقوله: ﴿وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾[6] .

---

(١) – سورة طه، الآيتين ٢٧– ٢٨. ينظر: الكشاف للزمخشري. ج:٢، ص: ٤٣٢. والبيان والتبيين للجاحظ ج:١، ص: ٧.

(٢)– سورة الزخرف، الآية ٥٢. وينظر: الكشاف. ج: ٣، ص: ٤٢٣.

(٣) – هو أحمد بن عبد الله بن مسلمبن قتيبة الدينوري أبو جعفر، قاضٍ من أهل بغداد له اشغال بالأدب والكتابة. توفي عام ٣٢٢ هـ– ٩٣٤ م. ينظر الأعلام للزركلي. ج:١، ص: ١٥٦.

(٤) – تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة. شرح ونشر: السيد أحمد صقر. دار التراث، القاهرة– مصر. الطبعة الثانية: ١٣٩٣ هـ – ١٩٧٣ م. ص: ١٢.

(٥) – سورة الزخرف، الآية ٣.

(٦) – سورة النحل، الآية ١٠٣.

لقد نبذ العرب كل أشكال اللحن والزلل والخروج عن نظام اللغة، يقول يونس بن حبيب[1]:« ليس لعيِيٍّ مروءة، ولا لمنقوص البيان بهاءٌ ولوْحَكَّ بيافوخه أعنان السماء.» [2] وذكر الرافعي أن اللحن كان يُعتبر من أقبح الهُجنة في دولة عبد الملك بن مروان[3]، لأن العرب آنذاك كانوا لا يزالون على حَمِيَّتهم[4].ومما ذكر لعبد الملك بن مروان في إستقباحه للحن أن: « استأذن رجل من علِيَّة أهل الشام عليه وبين يديه قوم يلعبون بالشطرنج، فقال يا غلام، غطِّها: فلما دخل الرجل فتكلم لحن. فقال عبد الملك: يا غلام، اكشف عنها الغطاء، ليس للاَحن حُرمة.» [5] .

وعلى هذا انصرف علماء العرب إلى تشخيص تلك العيوب الكلامية التي تجعل المرء قاصراً عن استعمال اللغة بالشكل المرضي، والإحاطة بدوافعها في محاولة لتمكين المتكلم من تحاشيها والتخلص من براثنها؛ فذهبوا إلى ضبط العلل اللسانية في أنواع وأحاطوا بالعوامل المسببة لها واصفين ومقترحين لها العلاج، ومضمنين مصنفاتهم نتائج بحوثهم، الأمر الذي جعل من الدرس اللغوي العربي درساً يتّسم بضرب من الشمولية في البحث والدقة في الطرح.

وقبل أن نعرض لنتائج المصنفات اللغوية العربية في مجال المرض الكلامي لا بأس أن نقف عند الدرس اللغوي العربي لننظر في بواعثه ومنهجه ومجالاته لتبيين المناخ العلمي بجميع خصائصه وأبعاده، بوصفه البيئة التي عالجت مختلف القضايا العلمية المطروحة آنذاك ومن ضمنها مسألة المرض اللغوي بغية تسليط الضوء عليها ومناقشتها، إن منهجاً وإن موضوعاً.

---

(1) ـ هو أبو عبد الرحمان يونس بن حبيب الضبِّي بالولاء ويعرف بالنحوي، علاّمة بالأدب ولد عام ٩٤ هـ - ٧١٣ م. كان إمام نحاة البصرة في زمانه، أخذ عنه سيبويه والكسائي والفراء، من كتبه: معاني القرآن، اللغات، النوادر، الأمثال... توفي عام: ١٨٢هـ- ٧٩٨م. ينظر: الأعلام، ج:٨، ص:٢٦١.

(2)- البيان والتبيين. ج:١، ص:٧٧.

(3)- هو عبد الملك بن مروان بن الحكم الأموي القريشي أبو الوليد، من أعاظم الخلفاء ودُهاتهم، ولد عام: ٢٦هـ - ٦٤٦م وتوفي عام: ٨٦هـ - ٧٠٥م. نشأ في المدينة فقيهاً واسع العلم متعبداً، كان كثير الحفظ للشعر والأحاديث، انتقلت إليه الخلافة بموت أبيه عام ٦٥ هـ فضبط أمورها. نُقلت في أيامه الدواوين من الفارسية والرومية إلى العربية، وضُبطت الحروف بالنقط والحركات. ينظر: الأعلام، ج:٤. ص.١٦٥.

(4)- يراجع: تاريخ آداب العرب، مصطفى صادق الرافعي. دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان. الطبعة الأولى:١٤٢١هـ-٢٠٠٠م، ج:١، ص:١٨٩.

(5) ـ المصدر نفسه والصفحة نفسها.

٢-١ لمحة عن الدراسات اللغوية عند العرب

٢-١-١ نشأة الدرس اللغوي العربي

٢-١-١-١ دوافع ظهور الدرس اللغوي

كاد العرب في الجاهلية أن يكونوا مقصوري المعارف على حفظ الشعر وروايته وتذاكر الخطب وأيام الحروب والافتخار بالأنساب..، ولما جاء الإسلام بتعاليمه ومبادئه ومعجزته الخالدة (القرآن)، ساهم في توسيع معارف العرب وبسطها لتشمل علوماً شتى قام لها العلماء بتصنيف الكتب ووضع الرسائل.

هذا الإسلام فتح الباب للروم والفرس والنبط والبربر والزنج وغيرهم للدخول تحت لوائه والسير وفق منهاجه، فظهر الخطأ في استعمال أنظمة اللغة العربية بسبب ما سبق لألسنتهم من العجمة[١]. قال أبو بكر الزبيدي (٣٧٩هـ):«..لم تزل العرب العاربة في جاهليتها وصدر إسلامها تترع في نطقها بالسَّجيَّة، وتتكلم على السليقة، حتى فُتحت المدائن ومُصِّرت الأمصار، ودُوِّنت الدواوين، فاختلط العربي بالنِّبطي، والنَّقِيُّ الحجازي بالفارسي، ودخل الدينَ أخلاطُ الأمم، وسواقط البلدان، فوقع الخلل في الكلام، وبدأ اللحن في ألسنة العوام.» [٢] . وكان أن لَحِق ذلك الخلل كتاب الله الكريمَ؛ دستور الشريعة ومنار العربية ومرجع الدين واللغة؛ فقام علماء العربية بوضع ضوابط وقواعد تسهل فهم القرآن وتوضح ما غمُض فيه من ألفاظ، وتصُونه والعربيةَ عن أي تحريف أو تبديل قد يلحقهما من أولئك العجم المتعربين[٣]، قال ابن خلدون (٨٠٨هـ):« لما جاء الإسلام وفارقوا الحجاز لطلب الملك الذي كان في أيدي الأمم والدول، وخالطوا العجم فسُدت تلك الملكة [ملكة اللغة العربية] بما أُلقى إليها السمع من المخالفات التي للمتعربين من العجم. والسمع أبو الملكات اللسانية ففسُدت بما أُلقِيَ إليها مما

---

(١)- ينظر: مقدمة ابن خلدون للإستزادة في مسألة سبق العجمة إلى اللسان وإنعكاسها على اكتساب اللغة، الفصل الرابع الأربعون، والفصل الثاني والخمسون.

(٢)- لحن العوام، تأليف: أبو بكر محمد بن حسن بن مذحج الزبيدي. تحقيق: رمضان عبد التواب.مكتبة الخانجي بالقاهرة. الطبعة الثانية: ١٤٢٠هـ- ٢٠٠٠م. ص: ٥٩.

(٣)- يراجع: قراءة في مصادر التقعيد النحوي. مقال لـ: أ، قطب مصطفى سانو. مجلة المسلم المعاصر. السنة الحادية والعشرون (٢١). العدد:٨٤، ص : ٢٨-٢٩ .

يغايرها لجنوحها إليه باعتياد السمع، وخشي أهل العلوم منهم أن تَفسُدَ تلك الملكةُ رأساً ويطول العهد بها. فينغلق القرآن والحديث عن المفهوم؛ فاستنبطوا من مجاري كلامهم قوانين لتلك الملكة مطردةً شبْهَ الكليات والقواعد يقيسون عليها سائر أنواع الكلام؛ ويُلحقون الأشباه بالأشباه »[1].

وعلى هذا فإن مبلغ القرآن في نفوس المسلمين كان دافعاً لهم لدراسته وتفسيره وفهم إعجازه الذاتي وبيانه في كل المستويات، الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية..؛ فقام بذلك علم التفسير وعلوم الحديث والقرآن وعلم اللغة والنحو والصرف والمنطق والطبيعيات.. وغيرها، والتي كانت في بداية أمرها مختلطةً مجتمعةً قليلةَ المادة بعيدةً عن العمق لتأخذ في النمو شيئاً فشيئاً لتستوي كعلمٍ قائمٍ بذاته له أصول وفروع، وضعت فيه التصانيف ودونت في مادته الكتب[2].

٢ -١-١-٢ مناهج البحث في اللغة

لا شك أن أي دراسةٍ لظاهرة ما تقوم على منهج واضح المعالم يعود على تلك الدراسة بنتائج دقيقة وموضوعية.

ولأجل الوصول إلى تفسير للظاهرة اللغوية يتصف بالدقة والشمولية والموضوعية أقام العرب بحوثهم في لغتهم ودراستَها على الأسس التالية:

١)- الاستقراء:

في اللغة يدل الاستقراء على التتبع والنظر والتلمس[3]، ومن هذا المعنى أُطلقت لفظة استقراء على ما يقوم به الباحثون في موضوع ما من تتبعٍ له ورصدٍ لنقاطه وجمعٍ لها، وهو الأمر الذي ذهب إليه اللغويون العرب الأوائل حين عمدوا إلى تتبع اللغة في أفواه العرب لأجل تدوين ألفاظها ومعانيها وتقعيدها[4].

---

(١)- المقدمة. ص: ٤٧٠.

(٢) – يراجع: الدراسات اللغوية عند العرب إلى نهاية القرة الثالث، محمد حسين آل ياسين. منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت – لبنان. الطبعة الأولى: ١٤٠٠هـ -١٩٨٠م. ص: ٤٤٢ -٤٤٣.

(٣)- يراجع: لسان العرب المحيط. ج:٥. مادة قرا، ص: ٧٨.

(٤)- يراجع: الدراسات اللغوية عند العرب إلى نهاية القرن الثالث، ص: ٣٢٨.

إن منهج الإستقراء في رصد الظاهرة اللغوية يُهيئ للباحث مادةً غنيةً جداً ويُمكّنُه من الموازنة بين مضامينها واستنباط القواعد التي تحكمها، ويعرِّفُه بمدى إمكانية تعميم القانون من حصره. وقد أدرك علماؤنا أن لا طائل من دراسة لغتهم وفهم نُظُمِها دون الإلمام بجميع أحوالها والنظر في جميع أوجهها فانصرفوا لجمعها من أفواه العرب مستندين في ذلك إلى منهجٍ علميٍ رصين؛ فضبطوا الأقوام الفصحاء الذين يتوجب أخذ اللغة عنهم بالزمان والمكان[1]، وحددوا المعايير التي تُروى بها، وهذا كله ليس إلا لجعل استقرائهم موضوعياً شاملاً صائباً في رصد الظاهرة اللغوية.

٢)- الوصف:

استند العلماء العرب القدماء في بحوثهم اللغوية إلى المنهج الوصفي الذي يقرر ما هو موجود من ظواهر و استعمالات، ويحاول تفسيرها في ضوء اللغة نفسها. « وكان الدرس اللغوي حتى أواسط القرن الثالث سائراً على المنهج الوصفي في تناوله الموضوعات اللغوية إلى حد كبير» [2]. ويظهر أن انتهاج منهج الوصف من قبل علمائنا مبررٌ من زاويتين:

أ)- حداثة البحث الذي نشأ مختلطاً مجتمعاً دفعةً واحدةً ما حدى بالعلماء إلى الوقوف من ظواهر اللغة موقف الإخبار بها وذكر فروقها، وأوجه استعمالها. والأمثلة كثيرة على ذلك في الكتب المصنفة، ومن ذلك قول الخليل بن أحمد[3] مثلاً: « البربرة كثرة الكلام والجلبة باللسان» [4].

---

(١)- هناك من يرى أن تحديد القبائل الفصيحة قد ضَيَّق واسعاً باستثنائه جملة من الناطقين بالعربية لقربهم الجغرافي من الأعاجم، فحرم الدراسات العربية من كثير من صور الاستخدام اللغوي العربي، زيادة على عدِّه بعض الظواهر من اللهجات صوراً غير فصيحة ومستقبحة وإن كانت في الواقع تمثل تنوعاً لغوياً ثرياً.

(٢)- المصدر السابق ، ص:٣٧٥ .

(٣)- هو أحمد بن عمر بن تميم الفراهيدي الأزدي أبو عبد الرحمان، من أئمة اللغة والأدب، واضع علم العروض، عارف بالموسيقى، عاش فقيراً صابراً، كان أشعث الرأس شاحب اللون، ممزق الثياب، لا يُعرف في الناس. من مؤلفاته: العين، معاني الحروف، العروض، النقط والشكل،.. توفي عام ١٧٠هـ -٧٨٦م. ينظر: الأعلام للزر كلي. ج:٢، ص:٣١٤.

(٤)- كتاب العين: الخليل بن أحمد الفراهيدي، ترتيب وتحقيق: عبد الحميد هنداوي. دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان. الطبعة الأولى :١٤٢٣هـ -٢٠٠٣م. ج:١، ص:١٢٩.

ب)–إن موضوعات اللغة ذاتها يلائمها المنهج الوصفي كما يقول الدكتور محمد حسين آل ياسين بتقرير ما هو موجود من استعمالات وظواهر[1]، وتفسيرها في إطار اللغة دون محاولة البحث في العلة القائمة وراء ذلك كأن يقول قائلٌ: لم قالت العرب "سمع" و لم تقل" مسع"؟ – مثلاً– ويقوم لإثبات دليل على كلامه.

نفهم من هذا أن انتهاج المنهج الوصفي في الدرس اللغوي من قبل علماء العربية القدماء هو إدراك منهم للمنهج المناسب لمعالجة قضايا اللغة بالفهم والإدراك في الوقت الذي لم يهملوا فيه جانب التعليل واستنباط الأحكام.

٣)– **التحليل واستنباط القوانين** :

إن اللغة من حيث هي مظهرٌ من مظاهر الحياة الاجتماعية فإنها خاضعة لما تخضع له كل الحوادث والظواهر الاجتماعية من قوانين تتحكم فيها وتسيرها، وقد أدرك علماؤنا هذا الأمر فانصرفوا إلى النواحي التي يتوجب تعليلها في اللغة واستخراج الضوابط التي تحكمها اعتماداً على العقل والمنطق؛ فنجدهم في مباحث الصوت فسروا وضبطوا ما يحكم الأصوات من قوانين، وفي مباحث الدلالة عللوا المقابلة بين الخاصية الصوتية للحروف التي تتألف منها الكلمات و الدلالات التي تشير إليها[2]... وغير ذلك.

لقد تبلور منهج التعليل في المسائل اللغوية عند علماء العرب عقب الانفتاح على علوم اليونان..؛ إذ صارت الفلسفة و المنطق إطاراً عاماً لجميع الدراسات، ومنها اللغوية حتى أصبح اهتمام العلماء بالعلة بالغاً، بل وصل إلى حدَّ المفاضلة بينهم في من يُحسِن التعليل، فأفادوا كثيراً من هذا المنهج، وإن كان قد لحقهم شيءٌ من الخطأ في تعليلاتهم واستنتاجاتهم لبُعدهم عن الإلمام بلغات و علوم أخرى لها علاقة وطيدة بعلم اللغة[3].

---

[1]– ينظر: الدراسات اللغوية عند العرب... ص:٣٨٠.

[2]– ينظر: فقه اللغة وخصائص العربية، محمد المبارك ص: ١٠١. والخصائص، عثمان بن جني. ج:٢، ص: ١٥٧، ١٦٣.

[3]– يراجع: المصدر السابق، ص: ٣٧٩.

٤)- القياس:

لقد أدرك العرب أنه ليس بمقدورهم الإحاطة باللغة جميعها وسماعها من أصحابها أصواتاً وكلمات وتراكيب وأساليبَ..؛ فعمدوا إلى القياس الذي هو:« انتقال الفكر من الحكم على كلي إلى الحكم على جزئي أو جزئيات داخلة تحت ذاك الكلي» [١].

إن استخدام القياس في دراسة اللغة يُعد من الأسس المنهجية؛ ذلك أن وضع اللغة تحت الكلية العامة والتقدير عليها أسهل بكثير من محاولة الإحاطة باللغة وحصرها عن طريق السماع كما يقول الدكتور عبد الحميد الشلقاني في كتابه "رواية اللغة"، وهو المذهب الذي استحسنه جملة من علماء اللغة قديماً وحديثاً، « شرط أن لا يخالف هذا القياس عبقرية اللغة وخصائصها وسننها، وشرط أن لا يتحول إلى عملية شكلية خالية من الحياة والإبداع، وشرط أن لا يلجأ إليه الناس إلا بعد دارسة اللغة ومخزونها الصوتي والصرفي والنحوي والتركيبي والأسلوبي والدلالي»[٢].

ومن هذا كله ندرك ما كان لأئمة اللغة من توقد الذهن وقوة الملاحظة وعمق الدرس، ما ظهر جلياً في مصنفاتهم إذ لم يتركوا باباً من أبواب علم اللغة إلا طرقوه، ولا ميداناً من ميادينه إلا ولجوه؛ فألّفوا في النحو والصرف، وبرعوا في علم الصوت، وأدركوا جوانب عديدة من مباحث الدلالة، وأحاطوا بقضايا التطور اللغوي وأصول الكلمات وغير ذلك.

٢-١-٢ مستويات الدرس اللغوي العربي

ذكرنا فيما سبق أن الدراسات اللغوية العربية قامت لخدمة القرآن الكريم؛ إذ انكب العلماء عليه بالتمعن والتحليل والحفظ والتدارس؛ فألفينا النحوي الصرف، والقارىء الجيد، والحافظ الراوي، واللغوي العبقري،... وما إلى ذلك ممن عرضوا للقرآن والعربية بالبحث والتحري والتأليف. ونأتي فيما يلي على ذكر أهم مستويات التحليل اللغوي في الدرس العربي.

---

(١) ـ موسوعة البحث العلمي وإعداد الرسائل و الأبحاث و المؤلفات. عبد الفتاح مراد مادة: قياس. رقمها: ٤١٧٤. ص: ١٤٠٩.

(٢) ـ محاضرات في فقه اللغة، عصام نور الدين. دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى: ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٣م. ص: ١٦٦.

٢-١-٢-١ المستوى الصوتي

لقد مهّد علماء العربية جادة البحث المنظم في معرفة الصوت اللغوي، وأسهموا إسهاما حقيقياً في إرساء ركائزه وخوض موضوعاته بكل تفصيلاته، والإحاطة بتعقيداته وتشعباته، ما سجل لهم أسبقية الكشف العلمي فيه، قال أحد الستشرقين وهو برجشتراسر(١٨٨٦-١٩٣٢): « لم يسبق الغربيين في هذا العلم إلا قومان من أقوام الشرق، وهما أهل الهند يعني البراهمة، والعرب، وأول من وضع أصول هذا العلم من العرب الخليل بن أحمد المتوفى ١٧٧هـ أو سنة ١٨٠هـ»[١].

لقد كان للغويين القراء وقفات محمودة في مباحث الصوت إذ طرقوا « مخارج الحروف وأحيازها وصفاتها من حيث الجهر والهمس والقلقة والإصمات والسكوت واللين والتجاور والتأثير، والظواهر الصوتية المختلفة، و قوانين التطور الصوتي، ونتائج التماثل والتشابه أو التنافر بين الصوتين المتعاقبين..» [٢]. والناظر في كتاب سيبويه[٣](١٨٠هـ) يجد معالجاته لمسائل الإبدال والإدغام وما يترتب عنهما من ظواهر وقوانين من أجل البحوث الصوتية [٤]. كما أن كتاب ابن جني (٣٩٢هـ) "سر صناعة الأعراب " حوى مسائل هامة ودقيقة في ذات المجال سواء من حيث المصطلحات أومن حيث الموضوع. هذا وقد عرض ابن سينا (٤٢٨هـ) في كتابه " أسباب حدوث الحروف" لقضايا جوهرية تتعلق بالجانب العضوي والفيزيائي للصوت. ومن جانب علماء القراءات نجد مكي ابن أبي طالب القيسى[٥] (٤٣٧هـ) في كتابه "الرعاية"

---

(١)- التطور النحوي للغة العربية، برجستراسر. أخرجه وصححه وعلق عليه: رمضان عبد التواب. مكتبة الخانجي بالقاهرة، دار الرفاعي بالرياض. ط:١٤٠٢هـ-١٩٨٢م. ص:١١.

(٢)- الدراسات اللغوية عند العرب... ص: ٤٣٥، ٤٩٧.

(٣) - هو عمرو بن عثمان بن قمبر الحارثي بالولاء أبو بشر، إمام النحاة وأول من بسط علم النحو. ولد عام: ١٤٨هـ-٧٦٥م، لازم الخليل وفاقه، كتابه في النحو لم يُصنع قبله ولا بعده مثله. توفى عام:١٨٠هـ - ٧٩٦م. ينظر: الأعلام للزركلي. ج: ٥، ص: ٨١.

(٤) - ينظر: كتاب سيبويه. تحقيق وشرح عبد السلام هارون مكتبة الخانجي، القاهرة- مصر. الطبعة الثانية: ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م، مثلاً: ج: ٤، ص:٤٣١، ٤٤٥.

(٥)- عالم بالعربية والتفسير مقرىء، ولد عام ٣٥٥هـ -٩٦٦م بالقيروان من كتبه: مشكل إعراب القرآن، التبصرة في القراءات السبع، الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة، توفي عام: ٤٣٧هـ -١٠٤٥ م. ينظر: الأعلام، ج: ٧، ص: ١٦٥.

قد « أعطى نتائج ممتازة بسبب خبرته الطويلة لفن القراءة والتجويد)[1]. هذا إلى جانب بحوث الرازي[2](٦٣٠؟هـ)، والسيوطي[3] (٩١١هـ) الذي عقد أبواباً في المزهر للأصوات درس فيها إبدالها واختلاف الناطقين بها وما يعرض للمرء من تحريفات وتصحيفات صوتية[4]. وغير هؤلاء ممن لا يمثلون إلا شهادة في عمق الدرس الصوتي عند العرب وجديته وأصالته.

٢-١-٢-٢ المستوى الصرفي

عُني اللغويون العرب القدماء بدراسة الجانب الصرفي من اللغة؛ فعرجوا على البحث فيما يعرض للألفاظ من تطور واندثار وتوليد واختلاف، فصنفوا في الغريب واللغات والمعرب والمولد والدخيل[5].. يضاف إلى ذلك وقوفهم على ظواهر اللغة الدلالية من اشتراك وترادف وتضاد[6] وبحثهم في مسألة الإشتقاق وأنواعه وتوسعهم في ذلك[7]. بل ونظر علماؤنا في أصول الكلمات العربية ومن ذلك رسالة ابن عباس[8] "اللغات في القرآن" التي رد فيها عشرات الألفاظ في العربية إلى أصول فارسية ورومية وحبشية وعبرانية ونبطية وسريانية، وغيرها[9].

---

(١) – قضايا أساسية في علم اللسانيات الحديث، مازن الوعر. دار طلاس، دمشق- سوريا. الطبعة الأولى: ١٩٨٨، ص: ٦١١.

(٢) – هو أحمد بن محمد بن المظفر بن المختار أبو العباس بدر الدين، عالم بالتفسير والحديث عارف بالأدب من كتبه: حجج القرآن، مباحث التفسير، لطائفة القرآن. توفي بعد ٦٣٠هـ. ينظر: الأعلام، ج:١، ص: ٢١٧.

(٣) – هو عبد الرحمان بن أبي بكر بن محمد جلال الدين، إمام حافظ مؤرخ أديب. له نحو ٦٠٠ مصنف ولد عام ٨٤٩هـ – ١٤٤٥م، لما بلغ الأربعين اعتزل الناس وألف أكثر كتبه التي منها: الإتقان في علوم القرءان، الأشباه والنظائر في العربية، الاقتراح في علم أصول النحو، تفسير الجلالين... توفي عام ٩١١هـ- ١٥٠٥م. ينظر : الأعلام، ج:٣، ص:٣٠١ .

(٤) – ينظر: المزهر. مثلاً ج: ١، ص: ٤٦٠، ٥٣٧، ٥٥٦.

(٥) – ينظر: المصدر نفسه. ج:١، ص:١٨٦، ٢٦٨، ٢٥٥، ٣٠٤.

(٦) – ينظر: المصدر نفسه.ج١، ص:٣٦٩، ٣٨٧، ٤٠٢.

(٧) – ينظر: الخصائص، ابن جني. ج:٢، ص: ١٣٣.

(٨) – هو عبد الله بن عباس بن عبد المطلب القريشي الهاشمي أبو عباس المولود عام ٣ ق هـ-٦١٩ م حَبْرُ الأمة، صحابي جليل لازم النبي صلى الله عليه وسلم وروى عنه الأحاديث، كف بصره آخر عمره، توفي عام ٦٨ هـ- ٦٨٧ م من كتبه تفسير القرآن. ينظر الأعلام، للزركلي، ج:٤ ، ص:٩٥ .

(٩) – يراجع: الدراسات اللغوية عند العرب... . ص: ١٤٦.

والناظر في المعاجم اللغوية العربية أمثال "العين"، و"مقاييس اللغة"، و"لسان العرب"، و"أساس البلاغة" يتضح له إلمام الدارسين العرب ودرايتهم بالألفاظ ودقة تعرضهم لها بالتحليل والتقسيم؛ فنجدهم مثلاً ضبطوا صيغ الأفعال بين مجردة ومزيدة، صحيحة ومعتلة، متعدية ولازمة. منها ما يدل على الماضي وما يدل على الحاضر والدال على الأمر.. ، وصيغ الأسماء بين اسم فاعل، واسم مفعول وأسماء المرة والهيئة والزمان والمكان والآلة، وما هو مقصور وما هو ممدود، ومذكر ومؤنث.. وغيرها، ويَعُدُّ الباحثون المحدثون هذه التقسيمات من أجل وأهم ما يحدد الصور التصريفية المتعلقة بالأسماء والصفات والأفعال[1]. وهذه شهادة على تقدم الدراسات اللغوية العربية في هذا المستوى وأنها أحرزت نتائج قيمة.

٢-١-٢-٣ المستوى التركيبي

نشأ علم النحو عند العرب خوفاً على القرآن الكريم من اللحن، وعلى نظام العربية من الدروس، هذا العلم في بادىء أمره نشأ بسيطاً لتعليم الأعاجم مبادىء العربية وإلحاقهم بالعرب في تعلم أساليب الفصاحة، قال ابن جني (٣٩٢هـ)في "باب القول في النحو" من كتابه الخصائص: « هو انتحاء سَمْتِ كلام العرب في تصرفه من إعراب وغيره، كالتثنية والجمع والتحقير والتكسير والإضافة والنسب والتراكيب وغير ذلك، ليلحق من ليس من أهل اللغة العربية بأهلها في الفصاحة فينطق بها وإن لم يكن منهم، وإن شذَّ بعضهم ردَّ به إليها»[2].

إلا أن الذين اشتغلوا بهذا العلم كثروا منهم: عبد الله بن أبي اسحاق الحضري [3] (١١٧هـ)، وعيسى ابن عمر الثقفي[4](١٤٩هـ)، وسيبويه(١٨٠هـ)،

---

(١) - يراجع: علم اللغة عند العرب ورأي علم اللغة الحديث، شرف الدين علي الراجحي. دار المعرفة الجامعية، مصر. ط: ٢٠٠٢. ص:٦٦ .

(٢) - الخصائص، ابن جني. ج:١، ص: ٣٤.

(٣) - كنيته الزيادي نحوي من الموالي من أهل البصرة ولد عام ٢٩هـ-٦٥٠م أخذ عن كبار النحاة أمثال أبي عمر بن العلاء، وعيسى بن عمر، فرع النحو واعتمد القياس وكان أعلم البصريين بعلم النحو، توفي عام ١١٧هـ - ٧٣٥م. ينظر الأعلام.ج:٤، ص٧١.

(٤) - إمام من أئمة النحو، شيخُ الخليل وسيبويه وأبي عمر بن العلاء، أول من هذّب النحو ورتبه، كان صاحب تقعير في الكلام واستعمال للغريب، له نحو سبعين مؤلفاً احترق أكثرها منها: الجامع والإكمال في النحو. توفي عام:١٤٩هـ-٧٦٦م. ينظر الأعلام، ج:٥، ص: ١٠٦.

والكسائي[1](١٨٩هـ)، والأخفش الأوسط[2](٢١٥هـ)،.. «..وطال الكلام في هذه الصناعة وحدث الخلاف بين أهلها...وكثرت الأدلة والحجج بينهم وتباينت الطرق في التعليم»[3]، وحصل للنحو ثراء بهذا التنافس و السبق في التأليف، فأدرك أولئك العلماء وغيرهم أنماط التراكيب في العربية، ونظروا في المواقع التي تحتلها عناصر الجمل، وتوصلوا إلى معرفة التأثير الحاصل بين العناصر اللغوية وهو ما وسم بنظرية العامل[4]، وفطنوا إلى سرّ التأليف والتنظيم الجيد لكلم العربية فضبطوه في نظرية النظم[5]،...

وحسبُ المرء أن يعود إلى رفوف الخزانة التراثية العربية فسيجد من المصنفات في علم النحو ما يبهره كمّاً وكيفاً، حتى وجدنا بعض اللسانيين الغربيين يهتمون في دراستهم بالدراسات النحوية العربية ويصفونها بالعمل الدقيق الذي لم يزد عليه علم اللغة الحديث شيئاً إلا في بعض الحالات، قال ديفيد بترسون في بحث له بعنوان: "بعض الوسائل التفسيرية عند النحويين العرب": «...يجب أن يكون واضحاً من النقاش الذي تقدم أن النحويين العرب لم يكونوا وصفيين لا يهتمون إلا بالظاهر بأي حال، بل إنهم بُنيَويُّون بالمعنى نفسه الذي يُصَنَّفُ به أكثر الدرس اللساني في القرن العشرين، ومن ضمنه النحو التوليدي التحويلي؛ لقد كان النحويون العرب يهتمون بالتحليل البنيوي الذي يصل الأشكال بعضها ببعض وهو ما يؤدي إلى تفسيرها، ومن اللافت للنظر أن تكون بعض تحليلاتهم مجردة، ومصوغة بمصطلحات تشبه ما يستعمله اللسانيون اليوم...، إن دليل نجاحهم يتبين من أن عملهم لم يُتَجاوز إلا في حالات قليلة»[6].

---

(١)– هو علي بن حمزة بن عبد الله الأسدي بالولاء الكوفي أبو الحسن، إمام في اللغة والنحو والقراءة، من تصانيفه: ما يلحن فيه العوام، معاني القرآن، الحروف، القراءات،.. توفي عام:١٨٩هـ-٨٠٥م. ينظر: الأعلام. ج:٤، ص:٢٨٣.

(٢) –هو سعيد بن مسعدة المجاشعي البلخي البصري أبو الحسن، نحوي عالم باللغة والأدب، صنف كتباً منها: تفسير معاني القرآن، شرح أبيات المعاني،.. توفي عام:٢١٥هـ- ٨٣٠م. ينظر: الأعلام. ج:٣، ص:١٠١.

(٣) – المقدمة، لابن خلدون. ص: ٤٧٠.

(٤) – يراجع: كتاب سيبويه، مثلاً ج:١، ص: ١٣، ص: ٧٧.

(٥) – يراجع: دلائل الإعجاز في علم المعاني، الإمام عبد القاهر بن عبد الرحمان الجرجاني. تحقيق عبد الحميد هنداوي. دار الكتب العلمية. بيروت- لبنان. الطبعة الأولى: ١٤٢٢هـ -٢٠٠١م، ص: ٤٢، ٤٥، ٣٤٣.

(٦) – نوام تشومسكي في عيد ميلاده السبعين، د: حمزة بن قبلان المزيني. مقال نشر بالإنترنت بموقع:

www.hmozaainy.jeeran.com

٢-١-٢-٤ موضوعات أخرى

لم يقتصر بحث العرب في لغتهم على الصوت أو الألفاظ أو التراكيب إنما امتد ليشمل عديداً من المواضيع والبحوث كمسألة نشأة اللغة التي عرض لها علماءٌ أمثال ابن جني (٣٩٢هـ) وابن فارس (٣٩٥هـ) والسيوطي (٩١١هـ) بالبحث ومحاولة الضبط[١].

لقد أسس علماء العربية ركائز علم اللغة الاجتماعي بإدراكهم العلاقة بين اللغة والمجتمع، وتأثرها بالحضارات..،فمثلاً: تحدثوا في كتبهم عن الألفاظ الإسلامية الجديدة[٢] ، ولم يغفلوا عامل التجاور بين المجتمعات وماله من تأثير على الفصاحة خصوصاً واللغة عموماً .ولا أدل على ذلك من تحديدهم للقبائل التي تؤخذ عنها اللغة خوفاً من التداخلات اللغوية الناشئة عن جوار الأعاجم[٣]. هذا وإن البحثة العرب لم يكونوا بعيدين عن إدراك ما للظواهر النفسية من علاقة باللغة، «صحيح أنهم لم يتوسعوا في بحث جوانب هذه العلاقة ويفردوا لها الرسائل والكتب، إلا أنهم وعوا ذلك وأشاروا إليه » [٤] ؛ فمثلاً أدركوا أن الخوف قد يكون سبباً في فساد الكلام وأن طول الصمت موت للأفكار وفساد للحس والذوق، قال الجاحظ(٢٥٥هـ): « إذا ترك الإنسان القول ماتت خواطره وتبلدت نفسه وفسد حسه » [٥].

بل إن الدرس اللغوي العربي ما رقأت عيناه حتى غاص في أعماق البحث البيولوجي رابطاً إيَّاه باللغة، ولا نجد ما نستدل به هنا أحسن من كتابي "القانون في الطب" لابن سينا(٤٢٢هـ)، و"الحاوي" للرازي (٣١٣هـ)[٦]، حيث رُبط في مواضع منهما بين البحث العضوي واللغة، ومن ذلك دراستهم للعلل والأمراض العضوية التي قد تصيب اللسان أو الحلق

---

(١) - يراجع: المزهر. ج:١، ص: ٨ وما بعدها. ودلالة الألفاظ، لإبراهيم أنيس، ص: ١٣وما بعدها.

(٢) - ينظر: المزهر. ص: ٢٩٤.

(٣) - ينظر: البيان والتبيين، للجاحظ. ج:١، ص:١٩، والاقتراح في علم أصول النحو، جلال الدين السيوطي.تحقيق محمد حسن محمد حسن إسماعيل الشافعي. دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان. الطبعة الأولى:١٤١٨هـ- ١٩٩٨م. ص: ٣٣.

(٤) - الدراسات اللغوية عند العرب...محمد حسين آل ياسين. ص :٤٤٢.

(٥) - البيان والتبيين. ج: ١، ص:٢٧٢.

(٦) - هو محمد بن زكرياء أبو بكر الرازي، فيلسوف من أئمة الطب ولد عام ٢٥١هـ -٨٦٥م. أولع بالموسيقى والغناء، نظم الشعر، اشتغل بالكيمياء و الفلسفة في كبره. توفي سنة ٣١٣هـ -٩٢٥م من كتبه: الطب المنصوري، الفصول في الطب، منافع الأغذية ودفع مضارها. ينظر: الأعلام. ج٦، ص:٣٠.

أو الفم أو عضواً من أعضاء جهاز النطق أو السمع والتي يتردد صداها على آلية التعبير بالفساد والتقصير.

ورغم تقصير العرب في دراسة اللغة من الناحيتين المقارنة والتاريخية بسبب عدم إطلاعهم على لغات أخرى تؤهلهم للبحث في ذات الميدانيين[1]، فإن هذا التقصير الخارج عن نطاق قدرة أولئك العلماء في زمنهم لا يشكك أو يدحض عمق دراستهم وشموليتها لجوانب هي دعائم الدرس اللغوي.

ونعرض في المبحث الموالي جملة ما توصل إليه علماؤنا سعياً منهم إلى إدراك وفهم مسائل تعلل اللسان وأمراض اللغة؛ نعرض له بذكر الأنواع المعروفة من تلك الأمراض وأقسامها وعلاجاتها في محاولة للوقوف على مدى أصالة وعمق الدراسات اللغوية في هذا المجال.

---

(1) ـ الدراسات اللغوية عند العرب... ص: ٤٤٣.

٢-٢ الأمراض اللغوية في الدرس اللغوي العربي القديم

سبق وأن ذكرنا أن علماء العربية القدماء ألموا بجوانب عديدة من مباحث اللغة وكانوا على درجة من المعرفة بعلم الأصوات، ما مكنهم من إدراك العيوب الناشئة في آلة النطق والتي تقصر بالمرء عن إستعمال اللغة بالشكل الأمثل، كالحبسة واللثغة واللكنة.. وغيرها.

وعلى ذلك لا يساورنا شك في أن علماءنا قد أرسوا ركائز البحث في سلامة العملية الكلامية في إطار بحوثهم المتعلقة بالفصاحة والبيان. وأنهم خلصوا إلى نتائج قيمة للغاية لاتختلف عنها نتائج البحوث الحديثة، رغم افتقادهم للأدوات الدقيقة والوسائل المتطورة. وبهذا لاينبغي أن يَظُنَّ ظانٌ أن الإهتمام بالعاجزين عن النطق أمرٌ وليد العصر الحديث، وأن تناوله ثمرة من ثمرات المنهج اللساني الحديث بأسسه المنهجية والمعرفية.

ويحسن بنا دفعاً لذاك الوهم أن نعرض لما توصل إليه دارسوا العربية بذكر الأنواع المعروفة من العلل اللسانية، والأسباب الكامنة وراءها، وأهم علاجاتها. ولا بأس قبل هذا من الإشارة إلى أهم الكتب والمصنفات التي تناولت مسائل العلل اللسانية.

٢-٢-١ التأليف في المرض اللغوي.

لا يكاد المرء يعثر وهو يقلب النظر بين رفوف المكتبة التراثية العربية على مؤلف ينصرف لمعالجة قضايا الأمراض الكلامية تمام الإنصراف، في الوقت الذي يعثر على بعض الإشارات تضمنتها كتب أهمها:

١)- البيان والتبين:

ألفه عمرو بن بحر بن محبوب الجاحظ أبو عثمان، كبير أئمة الأدب، المولود عام ١٦٣هـ- ٧٨٠م، والمتوفى عام:٢٥٥هـ-٨٦٩م، صاحب التصانيف الكثيرة والتي منها: الحيوان، سحر البيان، البخلاء، المحاسن والأضداد،.. وكتاب البيان والتبيين[١]؛ ذاك المؤلف متعدد المواضيع، متنوع الأغراض، كثير الفوائد، والذي لم يقتصر على دراسة البلاغة والبيان فقط، بل تعدى ذلك إلى بحوث لسانية استناداً إلى منهج علمي دقيق هو تتبع الظاهرة وملاحظتها وإستخلاص النتائج العلمية منها.

---

[١] - ينظر: الأعلام، للزركلي. ج: ٥، ص:٧٤.

لقد ضمن الجاحظ كتابه عديد الأخبار واللطائف والخطب والأشعار كلها إن دلت على شيء فإنما تدل على عبقريته وسعة علمه.

وكتاب البيان والتبيين يمثل سطراً تراثياً هاماً حوى ملاحظات دقيقة حول سلامة عملية النطق كركيزة أساسية لفصاحة اللفظ، وعلى ذلك يذهب الدكتور ميشال زكريا في كتابه "مفاهيم الجمالية والنقد في أدب الجاحظ" إلى القول بأنه:«لم تعرف العربية من أولى سلامةَ النطق وعيوبَه الإهتمام الذي أحاطها به الجاحظ حتى ليكاد على تعدد الباحثين في هذا الموضوع أن يكون أوفرهم حظاً في استعراض الحالات التي شذت فيها فصاحة النطق بالحروف عن صحة مخارجها»[1]. ويتأكد لنا كلام الدكتور ميشال عاصي عند امعان النظر في كتاب البيان والتبيين؛ فصاحبه يحصي أنواعاً عديدة من العيوب الكلامية كالبكىء والبهر والعي والحبسة والفأفأة وغيرها، ويسهب في التمثيل لها والإستشهاد عليها. والجاحظ في كتابه يحيلنا إلى معرفة منهجه في تتبع الظاهرة المرضية؛ إذ يعتمد التجربة والخَبَر والملاحظة وهي أدوات لابد منها في تعليل المسألة وضبط القانون الحاكم لها.

وهو يسأل ليعرف السبب، فإن عرفه وصف له العلاج المناسب، ووضّح سبل الوقاية منه، قال مثلاً:« سألت مباركاً الزنجي الفاشكار...فقلت له: لِمَ تَنْزِعُ الزنج ثناياها؟، ولِمَ يُحدد ناسٌ منهم أسنانهم؟»[2] ، فلما أجابه الفاشكار قال:« فكم تظنهم- أكرمك الله- فقدوا من المنافع العظام بفقد تلك الثنايا» [3]، يفهم من هذا أنه يدعوا إلى عدم قلع الثنايا إدراكا منه لما يسببه ذلك من تشويه للكلام.

والواضح أن الجاحظ في معرض حديثه عن العلل اللسانية يعتمد أحد ركائز المنهج العلمي في البحث وهو الإحصاء، قال مثلاً عند ذكره للحروف التي تدخلها اللثغة:« هي أربعة أحرف: القاف والسين واللام والراء »[4] ويحصي كذلك الحروف التي تدخلها اللثغة في حرف الراء وحده، يقول:«وأما اللثغة التي تقع في الراء فإن عددها يضعف على عدد لثغة اللام؛ لأن

---

(1)- مفاهيم الجمالية والنقد في أدب الجاحظ، ميشال عاصي. مؤسسة نوفل، بيروت- لبنان، الطبعة الثانية:١٩٨١. ص: ٥٦.

(2) - البيان والتبيين. ج:١، ص: ٦٠.

(3) - المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(4) - المصدر نفسه.ج:١، ص: ٣٤.

الذي يعرض لها أربعة أحرف»[1]، بل إنه يصنّف المرض الكلامي بحسب السن، وبحسب الطبقة الإجتماعية، قال عن الأول مثلاً:« والذي يعتري اللسان مما يمنع البيان أمورٌ منها اللثغة التي تعترض للصبيان إلى أن ينشؤوا»[2]، وقال عن الثانية:« وأما اللثغة في الراء فتكون بالياء والظاء والذال واللين وهي أقلها قبحاً وأوجدها في ذوي الشرف وكبار الناس وبلغائهم وعلمائهم»[3].

هذا وغيره من جوانب البحث في آفات التعبير التي ضمنها الجاحظ كتابه البيان والتبيين في معرض حديثه عن فصاحة اللغة والبيان بها يجعل الدكتور محمد الصغير بناني على حق عندما وصف الجاحظ باللساني الرائد في علم تقويم اللسان[4].

ماتجدر الإشارة إليه هو أن كتاب البيان والتبيين يحتاج التأمل الطويل والتصفح الكثير لأجل الإحاطة ببحث الجاحظ فيه حول المرض اللغوي بسبب تناثر تلك النقاط ضمنه.

٢) الكامل في اللغة والأدب:

صاحبه هو محمد بن يزيد بن عبد الأكبر أبو العباس الأزدي الملقب بالمبرد المولود عام: ٢١٠هـ- ٨٢٦م والمتوفى عام:٢٨٦هـ-٨٩٩م، إمام العربية في زمانه، وأحد أئمة الأدب والأخبار، من كتبه: المقتضب، شرح لامية العرب، نسب عدنان وقحطان، والكامل[5] الذي نحن بصدد الحديث عما تضمنه حول العيوب الكلامية.

الكامل كتاب في الأدب واللغة، وهو جامعٌ للآداب والأخبار كما -يقول صاحبه- مابين كلام منثور، وشعر مرصوف، ومثل سائر، وموعظة بالغة،... حوى عديد الأبواب التي منها: باب في أقوال الحكماء، باب في أهمية الإختصار والإطناب عند العرب، باب في وصف الشجاعة والنجدة،.. وغيرها.

وقد تحدث المبرد عن جملة من آفات التعبير كالحبسة، والعقلة، والتنتمة، والرّتج، واللكنة، والطمطمة، والغمغمة، واللثغة، والغنة،.. إلخ، ويستشهد ببعض أبيات الشعر والأخبار

---

(١) - المصدر السابق. ج:١، ص: ٣٥.

(٢) - المصدر نفسه. ج:١، ص: ٧١.

(٣) - المصدر نفسه. ج:١، ص: ٣٧.

(٤) - ينظر: الدراسات اللسانية والبلاغية والأدبية عند الجاحظ من خلال البيان والتبيين، محمد الصغير بناني. ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر. ط: ١٩٨٣م. مقدمة الكتاب.

(٥) - ينظر الأعلام. ج: ٧، ص: ١١٤.

عن من عانى عيباً في الكلام كقوله عن اللكنة:«..كان زياد الأعجم وهو رجل من عبد القيس يرتضخ لكنة أعجمية » [1].

والمبرد لا يذهب إلى تعليل العيوب التي ذكرها ألبتة، بل يكتفي بوصفها والتعريف بها بشكل عام دونما زيادة.

٣)-العقد الفريد:

. هو مؤلف للفقيه أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي أبو عمر، المولود عام: ٢٤٦هـ -٨٦٠م، والمتوفى عام:٣٢٨هـ - ٩٤٠م، أديب من أهل قرطبة، وشاعر مذكور، غلب عليه الإشتغال بأخبار الأدب وجمعها[2].

كتاب العقد الفريد من أشهر كتب الأدب، وهو كتابٌ جامعٌ لأكثر علوم عصره، وافر المعلومات كأنه موسوعة ضخمة تتضمن المعارف والعلوم والآداب. من موضوعاته: السياسة والسلطات والحروب والأمثال والمواعظ والتعازي وكلام الأعراب والخطب والأنساب والشعر والأخبار والألحان وغيرها.

أتى إبن عبد ربه على ذكر آفات المنطق -كما سماها- في كتابه في باب الفصاحة، ونقل كلاماً من كتاب "الكامل" للمبرد، وعمد إلى الإستشهاد بأبيات من الشعر عند حديثه عن تلك العيوب كقوله في الغمغمة:« إنما تكون في الكلام وغيره لأنها صوت من لايفهم تقطيع حروفه

---

[1] ـ الكامل في اللغة والأدب، تأليف: أبو العباس محمد بن يزيد المعروف بالمبرد. تحقيق: تغاريد بيضون، نعيم زرزور. دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان. الطبعة الثانية: ١٤٠٩هـ-١٩٨٩م. ج:١، ص:٥٠٣.

[2] ـ ينظر: الأعلام. ج:١، ص: ٢٠٧.

قال عنترة:[من الرجز]

وَصَاحِبٍ نَادَيْتُهُ فَغَمْغَمَـا يُرِيدُ لَبَّيْكَ وَمَا تَكَلَّمَـا

قَدْ صَارَ مِن خَوفِ الكَلَامِ أَعْجَمَا.. »[1]

كما أنه يذكر أخباراً عن أناس عرفت عنهم حالة من الحالات المرضية كقوله في اللكنة: « اللكنة أن تعترض عند الكلام اللغة الأعجمية... وكان صهيب أبو يحي رحمه الله يَرْتَضِخُ لكنة رومية »[2].

كما أن ابن عبد ربه عقد باباً للإعراب واللحن وباباً للحن والتصحيف ضمنهما عديد المرويات عن السقط واللحن في الكلام وهوما يُعَدّ آفة في النطق بسبب العجمة أو عدم التمكن من اللغة[3].

والظاهر أن ابن عبد ربه لم يزد على التعريف بتلك الأمراض والتمثيل لها، من حيث محاولة معرفة أسبابها ووصف العلاج لها، شأنه في ذلك شأن المبرد في تعرضه للعلل اللسانية.

٤)-فقه اللغة وسر العربية:

مؤلف هذا الكتاب هو عبد الملك بن محمد بن إسماعيل أبو منصور الثعالبي المولود عام: ٣٥٠هـ-٩٦١م، والمتوفى عام:٤٢٩هـ-١٠٣٨م، إمام من أئمة اللغة والأدب، اشتغل بالآداب والتاريخ فنبغ، وصنَّف الكتب الكثيرة الممتعة والتي منها: يتيمة الدهر، سحر البلاغة، لطائف المعارف، الإعجاز و الإيجاز، وغيرها[4].

كتاب فقه اللغة مقسوم قسمان، أولهما "فقه اللغة"؛ وهو معجم لألفاظ عربية جمعها المؤلف حسب معنى تشترك فيه على ترتيب خاص كقوله:« فصل في تفصيل الصغار: الحصى

---

(١) ـ العقد الفريد، تأليف: أحمد بن عبد ربه الأندلسي، تحقيق: عبد المجيد الترحيني. دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان. ط: ١٤١٧هـ-١٩٩٧م. ج:٢، ص:٣٠٦.

(٢) ـ المصدر نفسه. ج:٢، ص: ٣٠٦-٣٠٧.

(٣) ـ المصدر نفسه. ج:٢، ص: ٣٠٧، ٣١٠.

(٤) ـ ينظر: الأعلام. ج:٤، ص:١٦٣.

صغار الحجارة، الفسيل صغار الشجر، الأشاء صغار النخل، الفرش صغار الإبل،.. »[1]، وقد جعل القسم الأول ذاك في ثلاثين باباً.

ثانيهما – أي القسم- هو المسمى: "سر العربية"؛ عبارة عن مجموعة من الفصول في خصائص العربية ذكر فيه جملة من مجاري كلام العرب وسننها كالتقديم والتأخير، والجمع يُراد به الواحد، وإقامة وصف الشيء مقام إسمه، وإقتصارهم على ذكر بعض الشيء وهم يريدون كله ..وغير ذلك.

والثعالبي تحدث في كتابه عن عيوب اللسان والكلام وذكر منها الرثة والحكلة واللكنة والهتهتة واللثغة واللجلجة...وغيرها، وجعلها في فصل على حِدَة، وفي فصل آخر ذكر مراتب العِيِّ فقال:« رجل عِيٌّ وعَيِيٌّ ثم حَصِرٌ ثم فهٌّ ثم مُفَحَّم ثم لجلاج ثم أبكم »[2].كما عقد فصلاً آخر ذكر فيه مراتب الصمم علماً أن الصمم وعيوباً أخرى في السمع تمثل أسباباً لحصول عيب في الكلام.

إلا أن الثعالبي لم يزد على ذكر تلك العيوب بشكل عام دونما تحليل، بل حتى دونما إعطاء أخبار وأمثلة عنها بحكم أن كتابه اعتمد منهجاً خاصاً في التأليف.

٥)– المزهر في علوم اللغة وأنواعها:

هذا الكتاب لعبد الرحمان جلال الدين السيوطي (٩١١هـ)، وعى كثيراً مما حوته كتب اللغة من شعر وأمثال ومفردات..، وهو على ضخامته –كما يقول المحققون له- ليس للسيوطي فيه إلا الجمع والترتيب عدا بعض الفقرات التي يُقَدِّمُ بها بين يدي الباب أو يختم[3].

والسيوطي تحدث عن العيوب الكلامية في معرض حديثه عن بعض الظواهر الصوتية كالإبدال والقلب..[4]، وذكر لغات العرب فيها، وإن كان يقف فقط ناقلاً لكلام الآخرين،

---

(1)- فقه اللغة وسر العربية، تأليف: أبي منصور عبد الملك ابن محمد الثعالبي. تحقيق املين نسيب. دار الجيل، بيروت-لبنان. الطبعة الأولى: ١٤١٨هـ-١٩٩٨م، ص: ٤٧.

(2) - المصدر نفسه. ص:١٣٩.

(3) - ينظر: مقدمة المحققين من المزهر.

(4) - ينظر: المصدر نفسه. ص: ٤٦٠، ٤٧٦ .

ومن ذلك قوله:« قال صاحب المحكم: الألثغ الذي لا يستطيع أن يتكلم بالراء »[1] . أو قوله: « قال ابن السكيت في كتابه الأصوات: الألثغ في الراء أن يجعل الراء في طرف لسانه، وأن يجعل الصاد فاءً والأرتُّ أن يجعل اللام تاءً. »[2] .

والسيوطي كبعض سابقيه لم يحمل نفسه تعليل العلل اللسانية وإسهاب الحديث في موضوعها، بل إنه لم يأت حتى على ذكر جميع ما يعرف منها.

٦)-المعجمات اللغوية:

لم تخل المعاجم اللغوية العربية القديمة من ذكر الأنواع المرضية في الكلام، كالتأتاة واللثغة والرتة واللكنة..، فضبطتها بالتعريف الدقيق، ومن ذلك قول الخليل(١٧٥هـ):« تقول في لسانه حكلة أي عجمة »[3] ، وقوله:« الرتة عجلة في الكلام، وتقول رجلٌ أرتٌّ ورَتَّ يَرُتُّ رتّاً ..» [4] . ومن ذلك كذلك قول ابن فارس(٣٩٥هـ):« اللثغة في اللسان أن يقلب الراء غيناً والسين ثاءً»[5] ،وجاء في لسان العرب:« اللجلجة والتلجلج التردد في الكلام »[6] .

والمعاجم اللغوية بحكم اختصاصها في جمع مواد اللغة لم تنصرف لموضوع العيوب الكلامية من حيث تعليلها، واكتفت بذكر ما عُرف من مسمياتها وتبيينهالا غير.

٧)- كتب الطب القديمة

كتب الطب القديمة بحثت في الأمراض اللغوية من الجانب العضوي (التشريحي)، وانصرفت بذلك إلى محاولة الإحاطة بالأسباب العضوية المؤدية إلى فساد الكلام وضبط علاجها.

فمثلاً عقد الرازي الطبيب (٣١٣هـ) في كتابه الحاوي باباً لأمراض الحلق واللسان

---

[1] - المصدر السابق: ص: ٥٦٦.

[2] - المصدر نفسه والصفحة نفسها.

[3] - كتاب العين، تأليف: الخليل بن أحمد الفراهيدي. ترتيب وتحقيق: عبد الحميد هنداوي. دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، الطبعة الأولى: ١٤٢٣هـ- ٢٠٠٣م. ج: ١، ص: ٣٤٣.

[4] - المصدر نفسه، ج: ٢، ص:٩٤.

[5] - مقاييس اللغة، أحمد بن فارس. ج:٥، ص:٢٣٤.

[6] - لسان العرب، ابن منظور. ج: ٥، ص:٣٤.

واللهاة[1]، وخصص باباً آخر للحديث عن علل تصيب اللسان بوصفه عضواً، مثل الورم والقروح والثقل والعظم..[2]، وهي كلها مما يجعل تقطيع الصوت وإخراج الحروف من الصعوبة بمكان.

وابن سينا (٤٢٨هـ) هو الأخر في كتابه "القانون في الطب " الذي يصفه الدكتوران عبد الناصر كعدان وعبد الفتاح حنون بالواضح والشامل وحَسَن التعرض للعلل اللسانية[3] يخصص أربعةعشر فصلاً للحديث عن أمراض اللسان، إلى جانب فقرات عديدة حول المرض الكلامي في سياق بحوثه التشريحية من كتابه.

فمثلاً يقول في قصر اللسان:« قد يَعْرِضُ لاتصال الرباط الذي تحته برأس اللسان وطرفه فلا يدع اللسان ينبسط، وقد يعرض على سبيل التشنج »[4]، وهو بهذا عَرَفَ ما يسمى اليوم "اللسان المربوط" الذي يَقْصُرُ بالشخص عن نطق بعض الحروف، وقد تحدث عن علاجه بالجراحة.

وقد أدرك ابن سينا بنباهة وفطانة سبب استرخاء اللسان وثقله وهو الجانب العصبي، يقوله:«..فـ يكون لسبب في الدماغ، وقد يكون لسبب في العصبة المحركة له أو الشعبة الجائية منها إليه... وقد يبلغ الإسترخاء باللسان إلى أن يَعْدِمَ الكلام أو يتعسَّر أو يتغير »[5].

وابن سينا يخصص فصولاً أخرى من كتابه للحديث عن الصوت والعيوب التي تعرض له، ومن ذلك غِلَظُهُ ودقته وارتعاشه وانقطاعه وقصره والبحة فيه..[6] وهي أيضاً مما يشوّه

---

(١) ـ ينظر: الحاوي في الطب، تأليف: أبو بكر محمد بن زكرياء الرازي. مراجعة وتصحيح: محمد محمد إسماعيل. دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان. الطبعة الأولى:١٤٢١هـ-٢٠٠٠م. مج:١، ج: ٣، ص: ١٢٥ وما بعدها.

(٢)ـ ينظر: المصدر نفسه. مج:١، ج:٣، ص: ١٥٧.

(٣) ـ يراجع: أمراض اللسان في كتاب القانون في الطب لابن سينا، مقال للدكتوران: عبد الناصر كعدان وعبد الفتاح حنون، نشر بالأنترنت على موقع: **www. Islamicmedicine.org**

(٤)ـ القانون في الطب، تأليف: الشيخ الرئيس أبو علي الحسين بن علي بن سينا. تحقيق وتعليق: سعيد اللحام. دار الفكر، بيروت- لبنان. ط: ١٤٢٣-٢٠٠٣م. ج:٢، ص:٣٠٥ .

(٥) ـ المصدر نفسه. ج:٢، ص: ٣٠٢.

(٦)ـ المصدر نفسه. ج٢، ص: ٣٨٥.

الكلام ويقلل من جودته. ويتحدث عن الشفتين وأمراضها[1]، والأسنان وما يكون بهما من عدم انتظام[2] يتردد صداه على الكلام بالفساد كذلك.

وبهذا ندرك مدى ما حظي به المرض اللغوي من قِبَلِ علماء الطب وتعرضهم لقضاياه بمنهج علمي دقيق.

ويمكننا الآن من خلال هذا العرض لأهم الكتب التي تناولت المرض اللغوي أن نقف على المنهج المعتمد عند علمائنا في بحث قضايا تلك العلل.

٢-٢-٢ منهج البحث في المرض اللغوي

تعرضت مصادر اللغة العربية إلى المرض الكلامي بكثير من العلمية، تتجلى في بحوث الجاحظ، وابن سينا، والرازي، وغيرهم ما يشكل لنا مرجعيةً متكاملةً ملمةً بقضايا ذلك الجانب مرسيةً لقواعد علم اللغة العلاجي منذ ذاك الزمن.

لقد نهج علماؤنا في بحثهم العلل اللسانية منهجين متغابرين يظهران جلياً في مصنفاتهم، أولهما: منهج الوصف؛ الذي عمدوا به إلى التعريف بتلك العيوب بعد ملاحظاتها، تعريفاً مجرداً من التحليل والتعليل، والأمثلة على هذا كثيرة في المعاجم اللغوية، وكتب اللغة كالعقد الفريد، وفقه اللغة للثعالبي...الخ.

ثانيهما: هو منهج التعليل الذي سعوا به نحو فهم العلة المتحكمة في الآفة الكلامية استناداً إلى التجربة والملاحظة والإستنتاج، لأجل تخليص المرء منها، وجعله ممتلكاً لآلية النطق السليمة المنتجة للكلام السليم، فمثلاً يعلل الجاحظ بكفية فريدة كيف أن الشخص إذا سقطت أسنانه جميعاً كان أصلح له وأحسن في الإبانة عن الحروف منه إذا سقط جزءٌ منها، وذلك راجعٌ إلى التساوي في حصر الهواء وتوزيعه داخل الفم عند نطق الحروف[3]. وابن سينا يستنتج من خلال ملاحظاته أن اللسان إذا كان عريظاً عظيماً جداً أو صغيراً لم يكن صاحبه قادراً على

---

(١) - المصدر نفسه. ج:٢، ص:٣٣٦.

(٢) - المصدر نفسه. ج:٢، ص: ٣١٥.

(٣) - يراجع: البيان والتبيين. ج:١، ص: ٦١.

الكلام بالشكل الأمثل[1].

وبهذا المنهج المركب إستطاع علماؤنا النفاذ إلى أعماق العلل اللسانية، بالمعرفة والتحليل وضبط الأسباب ووصف العلاج الناجع.

هذا وإن كان بدى لنا بعض النقص في منهج التناول ذاك، كخلو مؤلفات القدماء من جوانب إحصائية تبين مدى إنتشار الأمراض اللغوية، زيادة على عدم تصنيف تلك الأمراض، ما يجعل الباحث يعتمد على خبرته ومراسه في تميز ما هو عضوي أو ما هو وظيفي منها .

٢-٢-٣ المرض اللغوي أقسامه وأهم أنواعه

إن قراءة عجلى في مفهوم المرض اللغوي تحيلنا إلى ضبط المصطلح المتداول أو المعروف عند علمائنا والدال على المشاكل والإضطرابات اللغوية؛ حيث نجد أن مصطلح الآفة كثير الذكر للدلالة على تلك العيوب عندهم، يقول الجاحظ مثلاً:«ثم رجع بنا القول إلى الكلام الأول فيما يعتري اللسان من ضروب الآفات.»[2]، ويقول ابن سينا:« إن الخرس وغيره من آفات الكلام قد يكون من آفة في الدماغ ..» [3]، وصاحب العقد الفريد هو الآخر يستخدم ذات المصطلح.

لقد توضحت لنا من خلال قراءة المصادر المصنفة في أمراض الكلام مسألة مفادها أن علماء العربية الأولين لم يضبطوا العيوب الكلامية أو الآفات التعبيرية بتعريف دقيق واضح، في حين أننا نستشف عندهم أفكاراً تفيد بأن العلل اللسانية أو الأمراض اللغوية هي تلك العيوب الناتجة عن أسباب عضوية أو وظيفية تؤدي إلى حصول قصور في إستعمال اللغة، والبيان بها، والفصاحة فيها.

---

(١) ـ يراجع: القانون في الطب. ج:٢، ص: ٢٩٩. والحاوي للرازي. مج:١، ج: ٣، ص: ١٥٨.

(٢) ـ البيان والتبيين.ج:١، ص: ٥٧.

(٣) ـ القانون في الطب. ج: ٢، ص: ٣٠٧.

٢-٢-٣-١ أقسام الأمراض اللغوية

لانكاد نجد تقسيماً أو تصنيفاً واضحاً أدرج تحته علماؤنا الأنواع المعروفة من المرض اللغوي، بل أكتفوا بذكر تلك الآفات فحسب، وقد خلص الدكتور محمد كشاش في كتابه "علل اللسان وأمراض اللغة" من خلال جهود علمائنا إلى تصنيف الأمراض اللغوية قسمين:

أ)- قسم ناتج عن سوء الآداء وقلة القدرة على الكلام، ب)- قسم ناتج عن العلاقات الإجتماعية بالعناصر الأعجمية[1]. لكن الذي يبدو لنا أنه يمكن إدراج تلك الأمراض الناتجة عن العلاقات الإجتماعية بالعناصر الأعجمية كالحكلة واللكنة، يمكن إدراجها مع ما هو من سوء الأداء؛ فالشخص العجمي الذي لايعرف في لغته حرف الخاء مثلاً إذا تكلم بكلمة عربية فيها خاءٌ وأبدلها هاءً أو غيرها فإنه يكون قد أساء الأداء.

وعلى ذلك فإن الذي نراه هو تقسيم هذه الأمراض حسب علتها المسببة لها كالآتي:

١)- أمراض ناتجة عن عيب عضوي: هذا القسم أصله خللٌ حاصلٌ في جهاز النطق أو السمع، كعدم نضج الأنسجة مثلاً، أو الأورام أو القروح أو الجروح أو عدم الإنتظام وغير ذلك.

٢)- أمراض ناتجة عن عيب وظيفي: هذا القسم لايشكو فيه المرء من نقص أو خلل في آلة النطق، وكل ما في الأمر هو سوء في توظيف ذلك الجهاز.

ومن خلال هذا التقسيم يمكننا أن نحصر الأنواع المرضية بكل دقة ووضوح كالآتي:

٢-٣-٢-٢ أنواع الأمراض الكلامية

تعددت الأمراض اللغوية في مصنفات علمائنا ويمكن أن نذكر منها حسب مصدر العلة مايلي:

---

(١) - ينظر: علل اللسان وأمراض اللغة، محمد كشاش. المكتبة العصرية، بيروت – لبنان. الطبعة الأولى: ١٤١٩هـ-١٩٩٨م. ص: ٢٩.

أ)- **الأمراض الناتجة عن عيب عضوي**: نجد منها:

١. الحبسة العضوية:

هذه الحبسة ليست الحبسة الوظيفة التي سنتكلم عنها فيما بعدُ، لأن السبب فيها عضوي، قال عنها الجاحظ:« يقال في لسانه حبسة إذا كان في لسانه ثقل يمنعه من البيان» [١]، ويذهب ابن سينا إلى ضبط علة هذا المرض المرخي للسان المثَقِّل له بقوله:« قد يكون لسبب في الدماغ، وقد يكون لسبب في العضلة المحركة له أو الشعبة الجائية منها إليه... وقد يبلغ الإسترخاء باللسان إلى أن يَعْدِمَ الكلام أو يتعسر أو يتغير »[٢]، وهكذا فالعلة المتحكمة في هذا المرض عضوية بحتة، فإما أن تكون في الدماغ أو في عضلة اللسان أو الشفتين .. أو في الأعصاب الناقلة للسيالة، ما يترتب عنه انعدام للكلام قطعاً وهو الخرس، وإما تعسر له أو تبدل.

٢. اللجلجة:

حقيقتها« أن يكون فيه عِيٌّ وإدخال بعض الكلام في بعض»[٣] ؛ فأما إدخال الكلام بعضه في بعض فناتج عن اضطراب في عمليتي الشهيق والزفير؛ إذ يندفع بذلك الكلامُ فيه وتردٌّ وتكرارُ، وأما الإنحباس فردَّه علماؤنا إلى آفة في عضل الحنجرة كتمدد أو استرخاء[٤]، ويصفون حالة النطق عند المصاب بهذه العلة بأنه يحرك عضلات صدره وحنجرته بعنفٍ شديدٍ لا تحتمله تلك العضلات ما يؤدي إلى جمودها عن الحركة، فتحصل تلك الحبسة في أول كلمة ليسترسل بعد ذلك[٥].

واللجلجة مرادفة لمصطلح الرَّتج الذي قال عنه ابن عبد ربه:« تمنع أول الكلام فإذا جاء منه شيءٌ اتصل به »[٦]، وتأخذ اللجلجة الأشكال التالية :

- انحباس في أول الكلام ثم انطلاق فيه كقول القائل في زُرتُ المدينة:

---

(١) ـ الحيوان، دار إحياء علوم الدين، بيروت- لبنان. ط: ١٩٥٥م. ج: ٢، ص: ١٠، نقلاً عن: مفاهيم النقد والجمالية في أدب الجاحظ، ميشال عاصي. ص: ٦٨.

(٢) ـ القانون في الطب. ج: ٢ ، ص: ٣٠٢.

(٣) ـ فقه اللغة للثعالبي. ص: ١٣٨.

(٤) ـ ينظر: القانون في الطب. ج:٢، ص:٣٠٧.

(٥) ـ يراجع: المصدر نفسه. ج:٢، ص: ٣٠٧، والحاوي للرازي. ج:٣، ص:١٥٨.

(٦) ـ العقد الفريد، لابن عبد ربه، ج:٢، ص:٣٠٦.

انحباس .. زُرتُ المدينة.

- الضغط على الحرف الأول من الكلمة ثم مواصلة الكلام، مثل:

زُ ضغط ← رت المدينة

- تكرار الحرف الأول من الكلمة ثم الإسترسال في باقي الكلام مثل:

زْ، زْ،... زُرتُ المدينة.

وهذا الشكل الأخير هو ما يسميه القدماء التَّتَعْتُع، قالوا: إذا تتعتع اللسان في التاء فهو تمتام، وإن تتعتع في الفاء فهو فأفاء[1]. لكن لا ندري لِمَ يَقْصِرُون هذه الحالة على حرفي التاء والفاء، علماً أن المتلجلج قد يتردد في أي حرف يكون بداية كلامه، اللهم إلا إذا كانت الفأفأة عندما يستغلق الكلام على المرء، فيزفر مصدراً حرف الفاء ويتكرر منه ذلك فنربطها هنا بالحالة الأولى من حالات اللجلجة التي ذكرنا.

٣: الخنخنة:

هي الكلام من الأنف أو« أن لايُبِينَ الرجل كلامَه فَيُخَنْخِنَ من خياشيمه »[2] . وهذا المرض ناجمٌ عن تعثر في آلة النطق، كعدم التحكم في الحنك اللين للفصل بين الهواء الخارج من الأنف والهواء الخارج من الفم أثناء الكلام.

٤. الغُنَّة:

عيب من عيوب الكلام هو الآخر، يمكن إدراكه ببساطة عند سد الأنف والتكلم؛ ويعرفه القدماء بقولهم:« أن يشرب الحرف صوت الخيشوم »[3] . ويُرجع ابن سينا سبب هذا العيب إلى وجود سدَّة في الأنف قد تكون لحماً ناتئاً أو غيره، يُمنع بسببها مرور الهواء النافذ من الحلق إلى الأنف أو من الأنف إلى الحلق، فيحدث ذاك الصوت الذي هو الغنة عند الكلام[4].

إنَّ هذا العيب يؤثر على جودة الكلام تشويهاً وتشويشاً بسبب ذاك الطنين كما يسميه ابن سينا.

---

(١) ـ يراجع: البيان والتبيين ج:١، ص:٣٧، والعقد ج: ٢، ص: ٣٠٦.

(٢) ـ فقه اللغة وسر العربية، للثعالبي. ص:١٣٨.

(٣) ـ الكامل في اللغة والأدب، للمبرد. ج:١، ص: ٥٠٠.

(٤)ـ ينظر القانون في الطب. ج:٢، ص:٢٩٢.

٥. اللثغة العضوية:

تحدث الجاحظ في كتابه البيان والتبيين عن اللثغة وأسهب القول فيها، بذكر الحروف التي تَعرِضُ لها. والذي يظهر للعيان أن هذا العيب في جميع حالاته عيبٌ وظيفيٌ، لكنَّ الحقيقة التي تبينت لنا أن في ما ذكر الجاحظ قد يكون ناتجاً عن عيب عضوي أيضاً. بمعنى آخر، إن اللثغة التي تعرض للسين بأن تتحول إلى ثاء قد تكون ناتجةً عن عدم انتظام الأسنان طولاً وقصراً، خروجاً ودخولاً، أو سقوطاً، وهو ما يعرف بالشغا الذي قال عنه الثعالبي:« هو اختلاف منابتها»[١]. وعدم الانتظام هذا يُذهب الحروف ويُفسِدها بسبب الفجوات الموجودة بين الأسنان والتي يندفع منها الهواء عِوَضَ أن ينحبس أو يخرج من طريق مخصوصة، وذلك هو سبب تحول السين على ثاءٍ.

واللثغة التي تعرض للراء ذكر منها الجاحظ أوجهاً أربعة، وهي الياء والغين والذال والظاء المعجمات، وأشار إلى نوع آخر لايمكن تصويره بالخط وإنما يدرك بالسمع فقط[٢]، هذا النوع الذي لا يُتصور يتسبب فيه اللسان القصير أوالمربوط، والذي لايستطيع الوصول إلى الحنك الأعلى(الصلب) لتحقيق حرف الراء والذي يشترط في تأديته أن يُلامس اللسانُ الحنك الصلب؛ فنسمع راءً مختلطةً لا يمكن وصفها.

وعند ذكر ابن سينا علاج هذه الحالة المرضية وهوقطع الرباط الحاصل تحت اللسان، حدد مقدار القطع بأن ينعطف اللسان إلى الحنك إشارة منه إلى موضع تحقيق حرف الراء[٣].

٦. الجلع:

هذا الداء يصيب الشفتين وهو« قصورهما من الإنضمام »[٤] . والظاهر أن هذا المرض يمنع من نطق حروف يجب فيها انطباق الشفتين كالباء والميم، بل إن قصورهما عن الانضمام في حالة نطق كلمة مثل: "باب" يؤدي إلى نطقها "واو" بالواو وفي هذا فساد كبير للكلام.

---

(١) ـ فقه اللغة وسر العربية. ص: ١٣٥.

(٢) ـ يراجع: البيان والتبيين. ج: ١، ص: ٣٦.

(٣) ـ يراجع: القانون في الطب. ج:٢، ص: ٣٠٥.

(٤) ـ فقه اللغة وسر العربية. ص: ١٣٥.

٧. الهدل:

هو« استرخاء الشفتين وغلطهما »[١] ، ويؤدي هذا المرض إلى حدوث تفخيم في الكلام يُفسده ويُثقله في السمع، زيادة على ما يحدثه من اضطراب وتشويه للحركات من ضمة وفتحة وكسرة.

ب)–الأمراض الناتجة عن عيب وظيفي: نجد منها

١. اللثغة:

هي« أن يُعدل بحرف إلى حرف »[٢] ، بمعنى أن يبدل الشخص حرفاً في الكلمة بحرف آخر قريب منه ليس على وجه فقدان القدرة العضوية على نطق الحرف الأصلي، وإنما لزلة لسان أو سوء تعليم أو تقليد...إلخ. ويقسّم علماؤنا هذا العيب ليشمل خمسة أحرف هي: القاف والسين واللام والراء والشين المعجمة.

- فأما اللثغة التي تعرض للقاف فإنها الطاء، كالقول: طال لي، بدل:قال لي.
- وأما التي للسين فإنها الثاء، كالقول: بثرة، في بُسرة، أوبثم الله، في بسم الله. وهذه اللثغة قد تكون عضوية يسببها عدم انتظام الأسنان كما ذكرنا وقد تكون وظيفية كتعلم سيّءٍ مثلاً.
- التي تعرض للام تكون إما ياءً مثل: جمي بدل جمل، وإما كافاً يمثل لها الجاحظ بقوله: «كالذي عرض لعمر أخي هلال، فإنه كان إذا أراد أن يقول: ما العلة في هذا، قال: مكعكعة في هذا »[٣]
- والتي تعرض لحرف الراء فإما أن تكون:

١- ياءً، كالقول: عُمَي بدل عمر، أومُضَي، بدل مُضَر.

٢- غيناً، كالقول: مغَّة في مرَّة.

٣- ذالاً، مذَّة في مرَّة.

٤- ظاءً، مظَّة في مرَّة.

---

(١) ـ المصدر السابق، الصفحة نفسها.

(٢) ـ العقد الفريد، لابن عبد ربه. ج: ٢، ص:٣٠٦.

(٣) ـ البيان والتبيين. ج:١، ص:٣٥.

• وأما التي تعرض لحرف الشين فذكر الجاحظ أنه ليس التي تصويرها بالخط سبيل[1]، والحقيقة أن هذا النوع من اللثغة لم يتأدّ إلى مسامعنا، فعجزنا عن إدراكه وعجزنا عن وصفه.

نشير إلى أنه قد تجتمع في الشخص الواحد لثغتان،كأن يجعل اللام ياءً، والراء ياءً كقول أحدهم:« مَوْيَايَ وَيِيُّ اليَّيِّ، يريد مولاي وليُّ الرَّي »[2].

٢. الحبسة الوظيفية:

تسمى قديماً "العيّ"، وهذا الداءُ يشبه تماماً في مظهره الحبسة العضوية، وهو:« تعذر الكلام عند إرادته »[3]، إلا أن الإختلاف يكمن في السبب الداعي إليه؛ فالوظيفة ناشئة عن إضطراب نفسي كالقلق أوالخوف أو الدهشة...وغيرها، الأمر الذي ينعكس على آلية التنفس بالتذبذب فيظهر على شكل انحباس عن الكلام واسترسال وإنقطاع.

. يترادف مصطلح الحبسة هذا مع الحصر والإستغلاق أو الرتج، والفهاهة والفحامة والعيِّ والبهر..، علماً أن كل واحدٍ من تلك المصطلحات يدل على حالة دقيقة في إنحباس الكلام على حسب تمكنها من المرء وإفساد كلامه. قال الثعالبي في مراتب العيِّ:« رجل عِيٌّ وعَيِيٌّ ثم حَصِرٌ ثم فهٌّ ثم مُفَحَّمٌ ثم لجلاجٌ ثم أبكمٌ »[4]، نفهم من هذا أن انحباس الكلام أشدُّه انعدام الكلام تماماً وهو البكم (الخرس)، وأيسره ما يعرف بالعِيِّ.

نشير إلى أن هذا العيب الكلامي كان مذموماً جداً عند العرب؛ فهم يستكرهون الخطيب أو المتكلم المندهش الخائف الهايب للناس، الذي تتشتت الأفكار في ذهنه ويتعذر عليه التعبير عنها، قال يونس بن حبيب:« ليس لعَيِيٍّ مروءةٌ ولا لمنقوص البيان بهاءٌ ولو حَكَّ بيافوخه أعنان السماء »[5].

---

(١) ـ ينظر: البيان والتبيين. ج:١، ص: ٣٤.

(٢) ـ المصدر نفسه، ج:١ ، ص: ٣٦.

(٣) ـ الكامل في اللغة و الأدب. ج:١، ص: ٥٠٠.

(٤) ـ فقه اللغة وسر العربية. ص: ١٣٩.

(٥) ـ البيان و التبيين. ج:١، ص: ٧٧.

٣. الرتة:

هذا العيب يحصل في آلية النطق لأنه إدخال الكلام بعضه في بعض من باب السرعة والعجلة، قال الثعالبي:« الرتّة حبسة في لسان الرجل وعجلة في كلامه »[١] ، وقال ابن منظور[٢]:« الرتة عجلة في الكلام »[٣] . طبعاً هذا العيب يؤدي بالكلام إلى الفساد من جهة عدم الوضوح وعدم الفهم.

٤. اللكنة:

عيب تسببه اللغات الأجنبية خاصة في جانب الصوت، قال الجاحظ:« يُقال في لسانه لُكنة إذا أدخل بعض حروف العجم في حروف العرب وجذبت لسانَه العادةُ الأولى إلى المخرج»[٤] .

ومظهر هذا الداء أن يصعب على العجمي المتعرب نطق حروف مثل الخاء والغين، فيبدلها بحروف أخرى بإمكانه النطق بها، وهي أقرب منها للدلالة على المعنى، علما أنه قد ينطق بحرف لاتعرفه العربية.

يأخذ هذا العيب أشكالاً عديدةً أحصى منها علماؤنا مايلي:

أ)- إبدال السين والطاء بالشين و التاء على التوالي، كالقول: شُلتَان في سُلطان.

ب)- إبدال الشين المعجمة سيناً مثل: السِّعر، والمراد به الشعر (الكلام الموزون).

ج)- إبدال القاف كافاً مثل: كال بدل قال.

د)- إبدال الخاء المعجمة هاءً مثل: هائن بدل خائن.

ه)- إبدال الحاء هاءً مثل: أهسن في أحسن، والزاي سيناً، سورق في زورق.

و)- إبدال العين بالهمزة مثل: نائمة بدل ناعمة.

ز)- إبدال الجيم ذالاً أو زاياً معجمتين مثل: الذمل والزمل في الجمل.

---

(١) ـ فقه اللغة للثعالبي. ص: ١٣٧.

(٢) ـ هو محمد بن مكرم بن علي أبو الفضل جمال الدين ابن منظور الأنصاري، إمامٌ لغويٌّ حجة، ولد عام: ٦٣٠هـ-١٢٣٢م، ترك بخطه نحو خمسمائة مجلد منها: كتابه المشهور لسان العرب، مختار الأغاني، نثار الأزهار في الليل والنهار، مختصر مفردات ابن البيطار،.. توفي عام:٧١١هـ-١٣١١م. ينظر: الأعلام، للزركلي. ج:٧، ص:١٠٨.

(٣) ـ لسان العرب المحيط. ج: ٢، ص: ٩٤.

(٤) ـ البيان والتبيين. ج:١، ص:٣٩-٤٠.

٣. الرتة:

هذا العيب يحصل في آلية النطق لأنه إدخال الكلام بعضه في بعض من باب السرعة والعجلة، قال الثعالبي:« الرتّة حبسة في لسان الرجل وعجلة في كلامه »[١] ، وقال ابن منظور[٢]:« الرتة عجلة في الكلام »[٣] . طبعاً هذا العيب يؤدي بالكلام إلى الفساد من جهة عدم الوضوح وعدم الفهم.

٤. اللكنة:

عيب تسببه اللغات الأجنبية خاصة في جانب الصوت، قال الجاحظ:« يُقال في لسانه لُكنة إذا أدخل بعض حروف العجم في حروف العرب وجذبت لسانَه العادةُ الأولى إلى المخرج»[٤] .

ومظهر هذا الداء أن يصعب على العجمي المتعرب نطق حروف مثل الخاء والغين، فيبدلها بحروف أخرى بإمكانه النطق بها، وهي أقرب منها للدلالة على المعنى، علما أنه قد ينطق بحرف لاتعرفه العربية.

يأخذ هذا العيب أشكالاً عديدةً أحصى منها علماؤنا مايلي:

أ)- إبدال السين والطاء بالشين و التاء على التوالي، كالقول: شُلتَان في سُلطان.

ب)- إبدال الشين المعجمة سيناً مثل: السِّعر، والمراد به الشعر (الكلام الموزون).

ج)- إبدال القاف كافاً مثل: كال بدل قال.

د)- إبدال الخاء المعجمة هاءً مثل: هائن بدل خائن.

ه)- إبدال الحاء هاءً مثل: أهسن في أحسن، والزاي سيناً، سورق في زورق.

و)- إبدال العين بالهمزة مثل: نائمة بدل ناعمة.

ز)- إبدال الجيم ذالاً أو زاياً معجمتين مثل: الذمل والزمل في الجمل.

---

(١) ـ فقه اللغة للثعالبي. ص: ١٣٧.

(٢) ـ هو محمد بن مكرم بن علي أبو الفضل جمال الدين ابن منظور الأنصاري، إمامٌ لغويٌّ حجة، ولد عام: ٦٣٠هـ-١٢٣٢م، ترك بخطه نحو خمسمائة مجلد منها: كتابه المشهور لسان العرب، مختار الأغاني، نثار الأزهار في الليل والنهار، مختصر مفردات ابن البيطار،.. توفي عام:٧١١هـ-١٣١١م. ينظر: الأعلام، للزركلي. ج:٧، ص:١٠٨.

(٣) ـ لسان العرب المحيط. ج: ٢، ص: ٩٤.

(٤) ـ البيان والتبيين. ج:١، ص:٣٩-٤٠.

ح)- وهناك من يجعل الذال المعجمة دالاً فيقول في الجرذان: الجردان.

ونجد الجاحظ يدرج تحت معنى اللكنة وجهاً آخر هو تغيير الميزان الصرفي، وذكر لذلك مثالاً فقال:« قيل لنبطيٍّ: لِمَ ابتعت هذه الأتان؟، قال: أَرْكَبُهَا وَتَلَدُ لِي، فجاء بالمعنى بعينه ولم يُبدل الحروف بغيرها ولا زاد فيها ولا نقص، ولكنه فَتَحَ المكسورَ حين قال: تَلَدُ لي، ولم يقل: تَلِدُ لي »[1] . لكن تبين لنا أن هذه الحالة يمكن إدراجها تحت ما يسمى بالحكلة التي تختلف عن اللكنة من حيث شموليتها للجانب الصوتي والصرفي والتركيبي وإن كانتا ناشئتين جميعاً بسبب العجمة[2]، قال الجاحظ:« فإذا قالوا في لسانه حكلةٌ فإنما يذهبون إلى نقصان آلة النطق وعجز أداة اللفظ حتى لاتعرفَ معانيه إلاّ بالإستدلال »[3] ، يفهم منه أنه قد يُدْرَكُ معنى الكلام عند من هو ذو لكنة، في الوقت الذي يستعصي فهم من به حكلةٌ حتى لُيحتاج إلى ما يوضحه ويُزيل إبهامه.

٥. **اللحـــن:**

هو الخطأ في القواعد التركيبية وخاصة الإعراب الذي يُعتبر أصلاً من أصول العربية. ويأخذ اللحن أشكالاً عديدةً منها: تأنيث مالا يؤنث، وتذكير مالا يذكر، والخطأ في لفظ بعض الحركات، واستبدال كلمة بأخرى لايقتضيها المقام، واستعمال اللفظ غير العربي.. وما إلى ذلك مما يضفي على الكلام تشويهاً وفساداً [4].

٦. **اللفف:**

حقيقته« أن يكون في اللسان ثقلٌ وانعقاد »[5] ، وهذا المظهر المرضي ناتجٌ عن طول الصمت والتوقف عن الكلام، فإن أراد المرء الحديث بعد ذلك التوى لسانه ولم يعد يبين عن شيءٍ وثقل عليه الكلام[6]؛ لأن اللسان آلةٌ ميكانيكيةٌ تحتاج إلى التمرين على القول لأجل أن

---

(١) ـ المصدر السابق. ج:١، ص: ٧٤.

(٢) ـ ينظر: فقه اللغة للثعالبي. ص: ١٣٧. والعين، للخليل بن أحمد الفراهيدي. ج:١، ص: ٣٤٣.

(٣) ـ البيان والتبيين. ج:١، ص: ٣٦.

(٤) ـ يراجع: نفس المصدر، ج: ١، ص: ٢١٠ وما بعدها.

(٥) ـ فقه اللغة للثعالبي. ص: ١٣٨.

(٦) ـ يراجع: البيان والتبيين. ج:١، ص: ٣٨.

يخف لها ويسهل عليها، مثلها مثل احتياج اليد إلى التمرين على العمل، والرجْل إلى التمرين على المشي[1]، قال الشاعر: [من الرجز]

كـــأنَّ فِيهِ لَفَفاً إِذَا نَطَقْ مِن طُولِ تَحْبِيسٍ وَهَمٌّ وَأَرَقْ[2]

٧. الغمغمة:

يدل هذا المصطلح على عدم الفصاحة وعدم البيان في الكلام، قال صاحب العقد الفريد:« الغمغمة أن تَسمع الصوتَ ولا يَبِينُ لك تقطيع الحروف »[3] . مثل هذا العيب يظهر في كلام الشخص المذعور؛ إذ من المستحيل فهم ما ينطق به، يشهد لهذا قول عنترة[4]: [من الرجز]

وَصَاحِبٍ نَادَيْتُهُ فَغَمْغَمَا يُرِيدُ لَبَّيْكَ وَمَا تَكَلَّمَا

قَدْ صَارَ مِن خَوْفِ الكَلَامِ أَعْجَمَا[5]

والغمغمة قد تكون في الكلام أو غيره، لأنها صوت لا يُفهم تقطيع الحروف منه، ومن ذلك اختلاط الكلام و البكاء.

ولقد عدَّ علماؤنا طائفة من عيوب النطق تقوم على التكلف والتصنع في نطق الحروف ما يَسِمُ الكلامَ بالتشويه والفساد، ومن ذلك التشدق وهو المغالاة في استعمال الفكين والشدقين أثناء تقطيع الحروف وصُنع الكلام بما لا يجيزه أهل الأدب[6]، ويترادف هذا العيب مع التفَيْهُق والثرثرة والتفخيم. ومن ذلك أيضاً الفدادة والتزيُّد؛ وهما رفع الصوت والجهر به حتى

---

(١) ـ يراجع: الكامل في اللغة والأدب. ج:١، ص: ٥٠١.

(٢) ـ ينظر: البيان والتبيين. ج:١، ص: ٣٨.

(٣) ـ العقد الفريد. ج:٢، ص: ٣٠٦.

(٤) ـ هو عنترة بن شداد بن عمرو بن معاوية بن قراد العبسي، أشهر فرسان العرب في الجاهلية ومن شعراء الطبقة الأولى، كان أحسن العرب شيمة وأعزهم نفساً. عمّر طويلاً وتوفي نحو:٢٢ ق هـ-نحو: ٦٠٠م، ينسب إليه ديوان شعر أكثر ما فيه مصنوع. ينظر: الأعلام للزركلي. ج: ٥، ص: ٩١.

(٥)ـ ديوان عنترة. تحقيق وشرح: محمد سعيد مولوي. المكتب الإسلامي، بيروت، ودمشق. الطبعة الثانية: ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م، ص: ٣٣٩.

(٦) ـ ينظر: البيان والتبيين. ج:١، ص:١٧١.

الإزعاج[1]، والتقعيب الذي يتميز باستدارة الفم والشفاه عند النطق، وهي كلها مما يُعَابُ ويستقبح عند العرب لكن لا يصل إلى درجة استقباح الرتج والحبسة واللحن...[2]

ومن تلك العيوب كذلك البكىء وهو العجز عن التصرف في الكلام قولاً وخَطابةً[3]، وهذا العيب غالباً ما يُطلق على« قلة الخواطر وسوء الإهتداء إلى جيَادِ المعاني، والجهل بمحاسن الألفاظ »[4].

نشير فقط إلى أن من بين ما استُرذِل وعِيبَ في الكلام عند العرب تلك الظواهر اللهجية من كسكسة و كشكشة و طمطمانية وعنعنة ولخلخانية.. وغيرها[5]، والذي ظهر لنا أن تصنيف هذه الظواهر ضمن العيوب الكلامية إنما هو من باب مخالفة الفصاحة والبلاغة اللتان ضرب لهما العرب شروطاً وحدوداً، وليس من باب أنه مرض لغوي يحتاج إلى علاج، لماذا؟؛ لأن ما نَقصِدُه بالمرض اللغوي هو تلك العيوب التي تصيب بعض أفراد الجماعة اللغوية وليس الجماعة برمتها هذا من جهة، ومن جهة أخرى أنها تعرض للمرء على سبيل المرض المغلوب عليه الذي ليس له فيه خَيَار، والذي يَقصُر به عن استعمال اللغة.

فلما كانت تلك الظواهر منتشرة عند أصحابها وهي تُمثل تنوعاً نطقياً يتواصلون به دونما مشقة أو حرج، لم يجز لنا وصفها بالأمراض اللغوية، وإنما هي ظواهر خالفت بها تلك اللهجاتُ منطوق الفصحى التي كانت تمثل لغة الثقافة والحضارة حسبُ.

٢-٢-٤ أسباب العلل اللسانية وعلاجاتها

٢-٢-٤-١ أسباب العلل اللسانية

تقول القاعدة:"وراء كل دافعٍ سبب." ومن ثَمّ فما من شك أن حديث المرء بكلام مُشوّه سيِّءٍ معابٍ يعود إلى سبب ما يتحكم فيه. ويمكن من خلال بحوث علماء العربية القدماء ضبط الأسباب المتحكمة في العلل اللسانية كما يلي:

---

(1) ـ ينظر: المصدر السابق. ج:١، ص:١٣.

(2) ـ ينظر: المصدر نفسه. ج:١، ص:١٣.

(3) ـ يراجع: المصدر نفسه، ج:١، ص:١٣، و مفاهيم النقد والجمالية في أدب الجاحظ، ميشال عاصي، ص: ٥٧.

(4) ـ البيان والتبيين. ج:٤، ص: ٢٧.

(5) ـ يراجع فقه اللغة للثعالبي. ص:١٣٨، والعقد الفريد. ج: ٢، ص:٣٠٦.

١)- أسباب عضوية:

هذا الصنف حقيقته خلل في جهاز النطق كما بيَّنَّا، مثل عدم نضج الأنسجة أو الورم أو عدم الإنتظام، أو الاسترخاء أو العِظَم أو الإنسداد أو القصر..وما إلى ذلك. ولا يخفى أن هذه الأسباب تفسد الكلام إن لم تعدمه أصلاً.

لقد فطن علماء العربية إلى الجانب العضوي المسبب للمرض الكلامي، وأخذوا على عاتقهم التنبيه بضرورة النضج والسلامة العضوية في إنجاز العملية الكلامية بشكل جيد وسليم، واستطاعوا برهافة حسهم، ورجاحة عقلهم، ونباهتهم، ودقة منهجهم، حصْرَ العيوب ذات المنشأ العضوي، وضبطها بالعلاج الناجع، وأدركوا أن الأسباب العضوية المتحكمة في العلة اللسانية إما أن تكون عارضة كإبدال الأسنان عند الأطفال الذي يسبب لثغةً تزول عنهم بعد مدة، أو كالقروح والجروح في الفم أو اللسان التي تسبب الألم فتؤدي إلى فسادٍ في الكلام ينتهي بشفائها، وإما أن تكون لازمةً للمرء مثل المشاكل الحاصلة في الأعصاب أو الدماغ أو غيرها لصعوبة علاجها.

نجب أن نشير هنا إلى أمرٍ لفتَ انتباهنا واسترعى دهشتنا هو أن البحث القديم في العلل اللسانية ذات المنشأ العضوي بلغ حداً كبيراً من الشمولية والدقة يظهر ذلك في إدراك علمائنا العلاقةَ القائمةَ بين الدماغ والأعصاب، وتوظيف اللغة. ولا أدل على ذلك من إرجاع ابن سينا الحبسةَ في الكلام أو الخرسَ إلى آفةٍ في الدماغ أو في الأعصاب المحيطة بالعضو العاطل عن العمل[1]، وهذا يدل على أن الجانب العضوي رغم صعوبته ودقته لم يكن غائباً عن اهتمام علمائنا؛ معرفةً وتعليلاً وعلاجاً.

٢)- أسباب وظيفية:

كنا قد وضحنا في السابق أن هذه الأسباب لا يتحكم فيها الجانب العضوي، بمعنى أنها لاتعود إلى خللٍ أو نقصٍ في آلة النطق أو الأعصاب، والمسألة كلها أن عواملاً نفسيةً أو اجتماعيةً أو بيئيةً هي التي تسبب الخلل في كيفية توظيف الأصوات أو الكلمات، فتحدث تشويهاً للكلام، والإشارات إليها واضحة في كتب القدماء.

---

(١) ـ القانون في الطب. ج: ٢، ص: ٣٠٢، ٣٠٦.

- فمن العوامل النفسية نجد:

ا)- الخوف:

عامل يترك تأثيراً بالغاً على اللسان بما يثيره من تغيرات فيزيولوجية كسرعة خفقات القلب والرعشة وعدم انتظام التنفس ما ينعكس على الكلام تلجلجاً وانحباساً وغمغمة، قال عنترة: [من الرجز]

وَصَاحِبٍ نَادَيْتُهُ فَغَمْغَمَا يُرِيدُ لَبَّيْكَ وَمَا تَكَلَّمَا
قَدْ صَارَ مِن خَوْفِ الكَلَامِ أَعْجَمَا[1]

ب)- الخجل والدهشة والهيبة:

هو عامل نفسي آخر يصيب الإنسان فينعكس تلجلجاً واستغلاقاً في كلامه، وأكثر ما يكون عند انصباب الأبصار عليه، وانفتاح الأسماع إليه. رُوِيَ أن يزيد بن أبي سفيان لما قدم الشام والياً عليها لأبي بكر، خطب في الناس فاستغلق عليه الكلام ثم عاد إلى حمد الله مرة أخرى فاستغلق عليه الكلام فقال: يا أهل الشام عسى الله أن يجعل بعد عسرٍ يسراً وبعد عِيٍّ بياناً، وأنتم إلى إمام فاعلٍ أحوج منكم إلى إمام قائلٍ ونزل[2].

- ومن العوامل الإجتماعية نجد:

ا)-الإ ختلاط بالأعاجم والعادات اللفظية:

يؤدي الاحتكاك بالأعاجم إلى حصول الخلل في الألسنة من قبيل كثرة ما يُلقى أو يَتردد علىالسمع من كلامهم، بمعنى أن ما كان مغايراً للنظام اللساني صوتاً وصرفاً وتركيباً إذا وصل إلى السمع وكَثُر تردُّدُه عليه انعكس بلا شك على اللسان لأن السمع أبو الملكات اللسانية[3]، فتحصل التداخلات اللغوية في الكلام ما يؤثر في فصاحته وجودته.

ثم إن الأساس اللغوي الأجنبي (العادات اللفظية الأجنبية) هو الأخر يؤثر في استعمال اللسان العربي مسبباً اللحن واللكنة والحكلة واللثغة..، قال الجاحظ:«...ألاَ ترى أن السِّندي إذا جُلِب كبيراً فإنه لا يستطيع إلا أن يجعل الجيم زاياً ولو أقام في عليا تميمٍ وفي سُفلى قيسٍ، وبين

---

(1) - ديوان عنترة. تحقيق: محمد سعيد مولوي. ص: ٣٣٩.

(2) - يراجع: العقد الفريد. ج: ٤، ص:٢٣١.

(3) - ينظر: مقدمة ابن خلدون. ص:٤٧٠.

عَجُز هوزان..»[1] ، أي إن العجمي المتعرب ما يلبث منجذباً إلى عادةٍ لفظيةٍ في لغته الأم تؤدي إلى فسادٍ في كلامه بالعربية.

ب)- الصمت وقلة النطق:

إن عدم التفاعل الإجتماعي بالكلام يُثقل اللسان ويدفعه إلى الجمود؛ لأن اللسان يستمد مرونته وطلاقته وصحته من تمرينه بحكم أنه آلة من الآلات، قال الجاحظ:«..وأيَّةُ جارحة منعتها الحركة و لم تمرنها على الإعتمال أصابها من التعقد على حسب ذلك المنع »[2]. وعلى هذا ذهب علماؤنا إلى أن طول الصمت حبسةٌ، قالوا:« أحزى الله المساكتة، فما أَسْوَأَ أثرها على اللسان وأجلبها للعيّ والحصر إلى اللسان »[3] .

ومن العوامل البيئية نجد أن شدة البرد مثلاً مدعاةٌ لحصول عيب في الكلام، سُئِل أعرابيٌّ ما أشد البرد؟ فقال: إذا دمعت العينان وقطر المنخران ولجلج اللسان[4].

٢-٢-٤-٢ علاج العلل اللسانية

لما كانت الأمراض اللغوية ناشئةً عن أسباب إما وظيفية وإما عضوية، فإن علماءنا انصرفوا إلى معالجتها تماماً مع نوع العلة الناشئة بسببها.

فالجانب العضوي عقدوا له فصولاً عديدة في مصنفاتهم واسهبوا القول في المعالجات اللازمة لإزالة تلك العيوب، ومن ذلك قول ابن سينا في علاج قصر اللسان الناشيء عن اتصال الرباط الذي تحته بطرفه فلا يدعه ينبسط، يقول بأن علاجه قطع ذلك الرباط قليلاً، وهو بدقة يحدد مقدار القطع لأن لا يتسبب في خلل عضوي آخر بقوله:« ومبلغ ما يُحتاج إليه من قطعه في إطلاق اللسان أن ينعطف إلى أعلى الحنك وأن يخرج الفم »[5] .

وأنظر إلى معالجته الدقيقة للجلجة التي تحدثُ كما ذكرنا عند تحريك عضل الحنجرة والصدر بعنف شديد لا تحتمله تلك العضلات فتعصى فينحبس الكلام في أوله ليسترسل بعد

---

(١) ـ البيان والتبيين. ج: ١، ص: ٧٠.

(٢) ـ المصدر نفسه. ج: ١، ص: ٢٧٣.

(٣) ـ المحاسن والأضداد، تأليف: عمر بن بحر بن محبوب الجاحظ. شرح: يوسف فرحات. دار الجيل، بيروت. الطبعة الأولى: ١٤١٧هـ-١٩٩٧م. ص: ٢٩.

(٤) ـ ينظر: لسان العرب المحيط. ج:٥، ص: ٣٤٤.

(٥) ـ القانون في الطب. لابن سينا. ج:٢، ص: ٣٠٥.

ذلك، قال في علاج هذا أن المصاب يجب أن لا يستعد للكلام بنَفَسٍ وتحريك للصدر عظيمين، بل أن يشرع فيه بالهوينى واليسر، وإنه إن تعود على ذلك سهل عليه الكلام وبرىء من مرضه[1].

وأما الجانب الوظيفي فإنهم ذهبوا في علاجاته مذاهب دقيقة على حسب مصدر العلة؛ فنجدهم دعوا إلى عدم الإستكانة للخوف والدهشة، كما دعوا إلى التهيؤ للكلام والتدرب عليه، قالوا:« رأس الخطابة الطبع، وعمودها الدربة، وجناحاها رواية الكلام، وحُلِيُّها الإعراب، وبهاؤها تخير الألفاظ»[2] . والجاحظ مثلاً يصف العلاج للألثغ بكثرة التدرب وجَهْدِ النَّفْس لأجل النطق بالصواب من الحروف فإنه إن لزم هذا كان أحرى أن يستقيم لسانه[3].

كما أنهم ألحُّوا على ضرورة تقليب اللسان وتمرينه، قال ابن المقفع[4]:«..إذا كثر تقليب اللسان رقّت حواشيه ولانت عَذَبَتُه »[5]، وقال الجاحظ يدعوا للعمل على تقليب اللسان وتدريبه على الكلام ونبذ الصمت:«..وكيف يكون الصمتُ أنفعَ والإيثارُ له أفضل، ونفعه لا يكاد يُجاوز رأس صاحبه، ونفع الكلام يَعُم ويَخُص، والرُوَّاة لم تروِ سكوت الصامتين كما رَوَت كلام الناطقين، وبالكلام أرسل الله أنبياءه لا بالصمت، ومواضع الصمت المحمودة قليلةٌ، ومواضع الكلام المحمودة كثيرة، وطول الصمت يُفسِدُ اللسان،... وإذا ترك الإنسان القول ماتت خواطره وتبلدت نفسه وفسد حسه»[6].

بل إن الجاحظ يرشدنا عند وصفه لعلاج المرض اللساني إلى منهج العرب قديماً في بلوغهم الفصاحة والبيان وتجَنُّبِ العيب في الكلام بقوله عنهم:«...وكانوا يروون أبناءهم

---

(1) ـ يراجع: المصدر السابق. ج:٢، ص: ٣٠٧.

(2) ـ البيان والتبيين. ج:١، ص: ٤٤.

(3) ـ المصدر نفسه. ج:١، ص: ٣٦.

(4) ـ من أئمة الكتاب وأول من عني بترجمة كتب المنطق، أصله من الفرس، ولد عام: ١٠٦هـ- ٧٢٤م وتوفي عام: ١٤٢هـ-٧٥٩م. أشهر أعماله كتاب كليلة ودمنة، وكانت له عديد الرسائل منها: الأدب الصغير، الأدب الكبير، الصحابة. ينظر: الأعلام للزركلي. ج: ٤، ص: ١٤٠.

(5) ـ العقد الفريد، ابن عبد ربه. ج:٢، ص:٣٠٧.

(6) ـ البيان والتبيين. ج:١، ص:٢٧٢.

الأرجاز، ويعلمونهم المناقلات، ويأمرونهم برفع الصوت وتحقيق الإعراب، لأن ذلك يفتّقُ اللهاة ويفتح الجِرْم »[1] ، وليس هذا إلا دعوة للأخذ بالمنهج القويم في درء الآفة الكلامية.

واللافت للإنتباه أن علماءنا ربطوا علاجهم للمرض اللغوي بالوقاية منه أصلاً، قال الجاحظ لما أجيب عن سؤاله: لم تَقْلِع الزنج ثناياها؟، قال:«...فكم تظنهم - أكرمك الله - فقدوا من المنافع العظام بفَقْدِ تلك الثنايا »[2] . وابن سينا يؤكد على تجنب شديد البرودة يُؤكل على الحار، وشديد الحرارة يؤكل على البارد لأجل سلامة الأسنان عن السقوط[3] ، وهو نبذٌ منهما لما يُسبب فساد الكلام ودعوةٌ إلي الحذر منه واتِّقَاءَهُ.

---

(1) - البيان والتبيين. ج: ١، ص: ٢٧٢.

(2) - المصدر نفسه. ج: ١، ص: ٦٠.

(3) - يراجع: القانون في الطب. ج: ٢، ص: ٣١٥-٣١٦، والحاوي للرازي. مج:١، ج:٣، ص:١١٢.

تقويم عامّ:

إن ما استعرضناه فيما سبق مما استطاع علماؤنا النفوذ إلى أعماقه في مجال المرض الكلامي استناداً منهم إلى منهج علمي رصين في ضبط أنواع تلك العلل، ومعرفة مسبباتها والتعرض لها بالعلاج الأمثل، في محاولة لتنقية اللغة من الشوائب، واكتساب المتكلم الفصاحة والبيان...، إن ما استعرضناه بات دليلاً ليس للشك فيه نصيبٌ على أن ممَّا يُحسب لعلماء العربية الأولين سبقهم لإرساء ركائز البحث في العلل اللسانية والأمراض اللغوية، لا نقول السبق في التفطن أو التلميح، بل السبق في التعرض لذلك الموضوع بالبحث العلمي الدقيق وتحقيق النتائج القيمة جداً، في الوقت الذي لم يملكوا أجهزة متطورة ودقيقة يتطلبها موضوع كهذا، وبخاصة الناحية البيولوجية منه.

الفصل الثالث

سبر تجربة القدماء من منظور لساني حديث

تمهيد:

إن ما علمناه فيما سبق من خوض علماء العرب القدماء غمار البحث في قضايا المرض اللغوي بقدر ما أتيح لهم من إمكانات لا يمكن وصفه بالبحث الموضوعي الدقيق المتصف بالعلمية إلا إذا تم عرضه على علم اللسانيات الحديث، وموازنته بنتائجه المتسمة بالموضوعية والدقة مستفيدة من الآلات المتطورة وبالغة الدقة.

وحتى نتمكن من ذلك لابد في البدء من عرض نظرة اللسانيات الحديثة إلى الأمراض الكلامية مقارنين بعدها بعض النتائج المتوصل إليها في الدراستين.

٣-١ الأمراض اللغوية في اللسانيات الحديثة

يتقسم علم اللسانيات الحديث إلى فروع عديدة يهتم كل فرع منها بناحية معينة من ذاك الفضاء الواسع المسمى " اللغة "؛ فنجد: علم اللسانيات العام، وعلم اللسانيات التطبيقي، وعلم اللسانبات النفسي، وعلم اللسانيات الاجتماعي، وعلم اللسانيات الرياضي، وعلم اللسانيات الحاسوبي، وعلم اللسانيات البيولوجي،.. هذا الصنف الأخير يُعنى بدراسة اللغة من حيث كونها ظاهرة ناشئة عن أعضاء بيولوجية من فم ودماغ وأذن وأعصاب، ورئتين..وغيرها، ويبحث في الإضطرابات والعيوب التي قد تنشأ في هذه الأعضاء فتتأثر بها العملية اللغوية[١].

ولما كانت اللسانيات علماً قائماً بذاته ينصرف لدراسة اللغة وفق مقاييس هي الملاحظة والتجريب والضبط والموضوعية، اعتماداً على الآلات المتطورة ووسائل الكشف الدقيقة، فإن منهج البحث في الأمراض اللغوية لا يَحِيد عن تلك المعايير؛ بمعنى، إن ما تحقق للإنسانية اليوم من مظاهر التطور عاد على موضوع الأمراض الكلامية بجزيل النفع؛ ذاك أنه أصبح في متناول الدارسين ملاحظة جميع الحالات التي شذّت عن الاستعمال السليم للغة، وأمكن ضبطها، وسهل تصنيفها وتحقق علاجها بفضل الاستفادة من معطيات العلوم الأخرى؛ من علم اجتماع، وعلم نفس، وحواسيب، وطب،.. وغيرها. بل إن تخصص العلماء في مجال علم اللسانيات البيولوجي لأكبر دليل على أن المنهج الحديث لا يسعى إلا إلى التوصل لأكثر النظريات والنتائج علمية ودقة فيما يتعلق بالاضطرابات والعلل التي تصاب بها اللغة فتقصُر عن تحقيق غايتها.

---

(١) – يراجع: قضايا أساسية في علم اللسانيات الحديث، مازن الوعر. ص: ١٥.

إن البحث الحديث يقرر « أن الكلام يكون غير سوي حينما ينحرف كثيراً عن كلام الآخرين بدرجة تستلفت الانتباه، ويعوق الاتصال، أو يسبب حالة من الضيق للمتحدث أو المستمع» [1].

نفهم من هذا أن الاضطرابات اللغوية تأخذ أشكالاً متنوعة؛ بين ما هو انحراف عن الكلام السوي، وبين ما قد يُشوّش على العملية التواصلية إن لم يَعُقْها أو يعدمها، وبين ما قد يسبب نوعاً من المشقة و الضيق عند التكلم أو الاستمتاع كما هو الحال مع اللجلجة. وتصنف تلك الاضطرابات كما يأتي:

٣-١-١ تصنيف الأمراض اللغوية

يصنف الباحثون المحدثون الأمراض اللغوية تصانيف عديدة أهمها: التصنيف وفق العلة المسببة للمرض الكلامي، و التصنيف وفق الأعراض أو المظهر الخارجي للعيب الكلامي.

١- التصنيف حسب العلة المسببة للمرض الكلامي:

هذا التصنيف جارٍ كثيراً على ألسن الباحثين لما يتصف به من الدقة، حيث يضبط العلل اللسانية انطلاقا من مسبباتها أو بواعثها، والتي يمكن ضبطها في قسمين اثنين هما[2] :

أ)- أسباب عضوية:

هي كل خلل أو عيب في جهاز النطق أو السمع؛ كتلفٍ أو تشوّهٍ أو عدم نضج أو سوء تركيبٍ يؤدي إلى اضطراب ظاهرٍ أثناء الكلام. فمثلاً الشخص المصاب بشق في حنكه الصلب (ثقب) لا يمكنه نطق حرف الباء أبداً؛ لأنه كلما ضمَّ شفتيه ليحدث الضغط اللازم لتحقيق ذاك الحرف فإن الهواء يتسرب من الثقب في حلقه ويخرج من الأنف، وهذه إشكالية عضوية واضحة، ومثلها الفجوات الحاصلة بين الأسنان بسبب عدم الإنتظام أو السقوط، وهي إشكالية عضوية أخرى تُحدث في الكلام تَفَشِّياً مشوهاً له، وكذلك الالتهابات أو القروح في اللسان، والتي تدفع بالمرء إلى التقليل من حركة هذا العضو الفعّال في الكلام بسبب الألم، فينعكس ذلك على الكلام فساداً وإبهاماً.

---

[1]- اللغة والتواصل لدى الطفل، أنسي محمد أحمد قاسم. ص: ١٩٩.

[2]- يراجع: أمراض الكلام، مصطفى فهمي. ص: ٢٩، والمصدر السابق. ص: ٢٠١ وما بعدها.

بـــ)_ أسباب وظيفية:

هذا القسم لا يرجع إلى عيب أو خلل في جهاز النطق، إنّما يعود إلى سوءٍ في كيفية توظيف ذاك الجهاز، كأن ينطق شخص بحرف الزّاي بدل الجيم في الكلام، أو أن يقلب أوزان الكلمات (أُدْرُسْ كَتْبَكَ، بَدَلَ: أكتب دَرْسَكَ..)

الأسباب الوظيفية هي عوامل نفسية كالخوف، وعدم الشعور بالأمن والطمأنينة، أو الاندهاش، أو الهيبة، أو الخجل،[1] ..؛ ما يحدث في الكلام إبدالاً ولجلجة وحبسة، أو قد تكون عوامل بيئيةً كالبرودة مثلاً، أو هي سلوكات متعلمة كأن يتعلم طفل نطقاً خاطئاً من شخص آخر مصاب بمرض لغوي[2].

كما يمكن أن تكون الأسباب الوظيفية عادات لفظية عالقة بلسان المرء من لغة شبّ عليها مثل عدم القدرة على نطق بعض الأحرف في لغات أخرى، ما يدفع إلى إبدالها بما هو أقرب منها.

نحب أن نشير إلى أنّ العلة في مرض لغوي ما قد تكون إما عضوية وإما وظيفية، وعلى ذلك ينبغي التدقيق في ضبطها.

٢_ التصنيف وفق المظهر الخارجي للعيب الكلامي:

تتقسم الإضطربات اللغوية وفق هذا التصنيف الذي يحددها بناءاً على مظهرها الخارجي إلى أربعة أقسام[3]:

أ)_ اضطربات النطق:

تحدث هذه المشاكل عند نطق حرف أو حروف بشكل خاطئ، وترجع إما لأسباب عضوية أو وظيفية،« وهي بمثابة مشكلات تتعلق بإنتاج أصوات الكلام أو طريقة نطق الحروف»[4]. وتشمل هذه الإضطربات المظاهر المرضية التالية:

إبدال الحروف، حذفها، إضافة حروف أخرى، قلب الأوزان...إلخ.

---

[1]_ ينظر: علل اللسان وأمراض اللغة، محمد كشاش. ص: ٥٤.

[2]_ ينظر: اللغة والتواصل لدى الطفل. ص: ٢٠٣.

[3]_ يراجع: مقدمة في الإضطرابات اللغوية، فاروق الروسان. دار الزهراء، الرياض. الطبعة الأولى: ٢٠٠٠، ص: ١٨.

[4]_ اللغة والتواصل لدى الطفل. ص: ٢٠١.

بـــ)_ اضطربات الصوت:

يشمل هذا النوع مشكلات في درجة الصوت اللغوي من حيث شدّته وارتفاعه وانخفاضه، أو مشكلات في نوعية الصوت، كالأجش والمبحوح والغليظ والرقيق...، أو مشكلات في فقدان الصوت بتاتاً.

جـــ)_ اضطرابات سلاسة الكلام:

هذا القسم يرتبط بالكلام من حيث تنظيمُه ومدتُه وسرعتُه وبطؤه وطلاقته..، ويشمل: السرعة الزائدة في الكلام، انقطاع الكلام، ترديد الحروف أو الكلمات أثناء الحديث،...

د)_ اضطربات اللغة:

يقصد بها المشاكل التي تتعلق باكتساب اللغة؛ كالتأخر في ذلك، أو سوء فهمها، أو صعوبة قراءتها أو كتابتها، أو صعوبة تذكر الكلمات المناسبة. وهي مشاكل تتعلق في معظمها بالعيوب الحاصلة في جهاز السمع أو في الأعصاب.

للعلم أنّ بالإمكان أن يعاني شخص من مرضين أو عيبين لغويين أو أكثر في الآن نفسه؛ كأن يبدل الحروف وهو عيب نطقي، في الوقت الذي يُسرع جداً في الكلام، أو أنّه لا يتذكر الكلمات.

ويمكننا من خلال استعراض تصنيفات العيوب الكلامية أن نقف على أهم الأشكال المرضية المعروفة.

٣-١-٢ أهم الأشكال المرضية المعروفة

من العيوب الكلامية البارزة نجد:

١)_ الثـــأثـــأة: Lisping

هذا العيب هو أن يبدل حرف السين بحروف أخرى كالتاء أو الدال أو الشين[١]، وقد تعود علته إلى أسباب عضوية؛ إما عدم انتظام الأسنان في تكوينها كبراً وصغراً، دخولاً وخروجاً، قرباً و بعداً، وإما عدم انطباق الفكين السفلي والعلوي على بعضيها، كأن يكون أحدهما متراجعاً والآخر بارزاً إلى الأمام. (ينظر الشكل-٣-)

---

[١]_ ينظر: أمراض الكلام، مصطفى فهمي. ص: ١٢١.

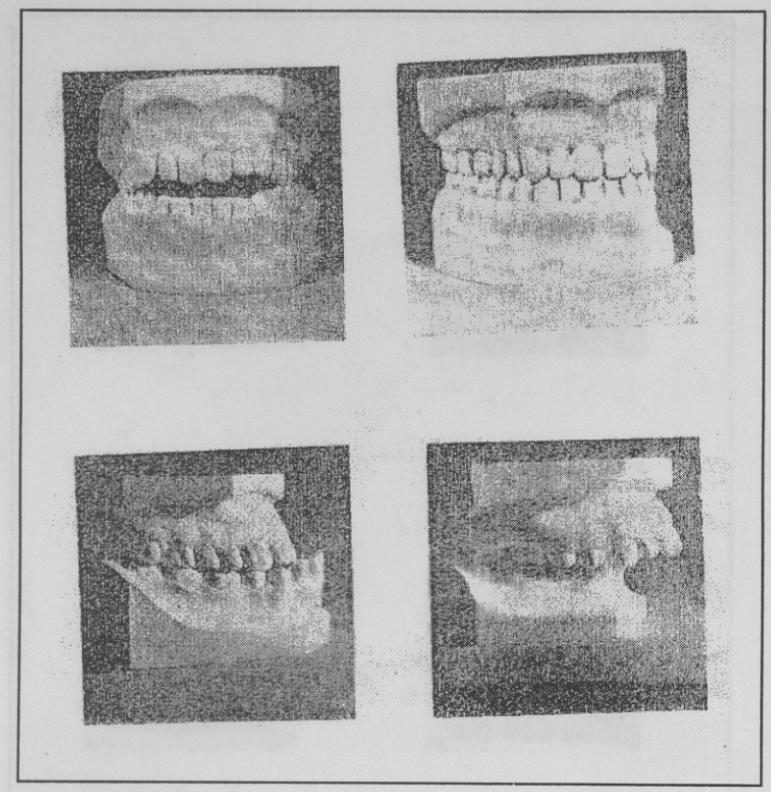

شكل(٣): رسم توضيحي يبين عدم انتظام الأسنان، وعدم تناسق الفكين

مأخوذ من كتاب: أمراض الكلام لمصطفى فهمي، ص: ١٢٢.

وقد يعود السبب في هذا العيب إلى عوامل تعلم، ومن ذلك التقليد حيث إنّ من حالات الثأثأة ما يرجع إلى تقليد المصاب لأشخاص يعانون من نفس المشكل[١].

الثأثأة تعالج إن كانت ناتجة عن خلل في الأسنان بإزالة التشويه الحاصل فيها، ليعقب ذلك التدريبُ على التحكم في اللسان لأجل نطق الحروف بشكل سليم.

٢)- الخمخمة: Rhinololia

هذا واحد من العيوب التي تسببها الشقوق الخلقية وتسمى خلقية للدلالة على أن المرء المصاب يولد بها[٢].

تعود علة الخمخمة إلى وجود ثقب أو شق في الحنك الأعلى، قد يقتصر على الجزء الصلب أو الرخو منه، وقد يمتد إليهما جميعاً حتى يصل إلى الشفاه. (ينظر الشكل -٤-)

---

[١]- يراجع: المصدر السابق. ص: ١٢٢- ١٢٣.

[٢]- ينظر: اللغة والفواصل لدى الطفل. ص: ٢١٠.

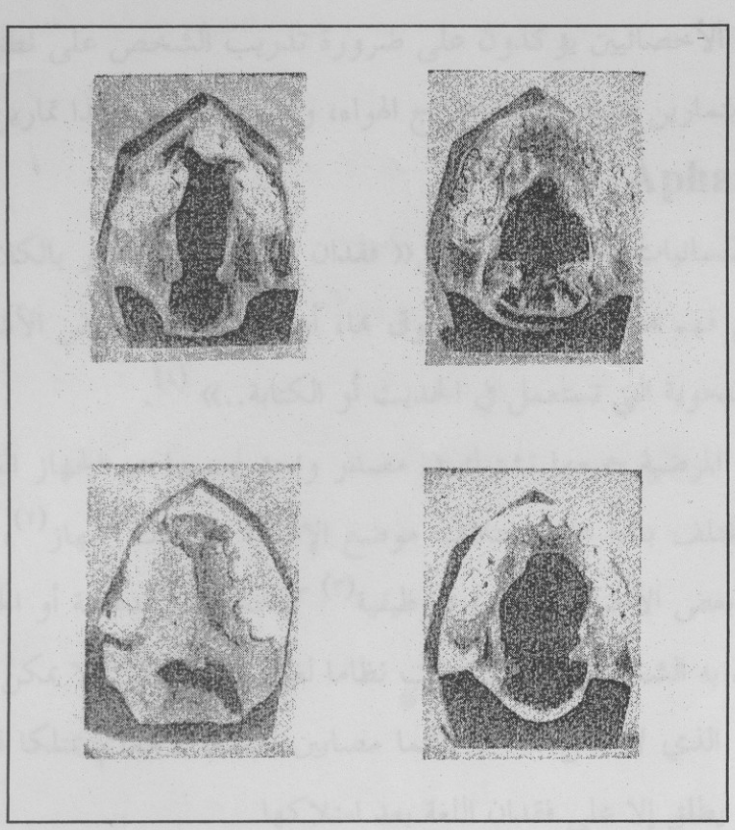

شكل(٤): رسم توضيحي يبين الثقب الحاصل في الحنك الأعلى

مأخوذ من كتاب أمراض لكلام لمصطفى فهمي ص: ١١٩.

هذا الشق يفسد نطق جميع الحروف ساكنةً كانت أو متحركة، فتخرج بطريقة غريبة وكأن فيها غنة[١]؛ وسبب ذلك أن الهواء الذي يفترض أن يخرج من الفم أثناء النطق يتسرب من الشق في الحنك فيخرج من الأنف كلّه عند نطق الحروف الشديدة، أو جزءاً منه عند نطق الحروف الرخوة، بمعنى أنّه يَمنعُ تحقق بعض الحروف بتاتاً، أو أنه مع تحققها يشوبها بصفير أو غُثة أو خنخنة.

علاج الخمخمة يكمن في إجراء عملية جراحية يلتئم بها ذاك الثقب، فإن تعذر سدت الفجوة بغطاء بلاستيكي يجد المريض نفسه قادراً بعدها على نطق الأصوات بشكل طبيعي[٢].

---

(١)– يراجع: أمراض الكلام. ص: ١١٥-١١٦.

(٢)– يراجع: المصدر نفسه. ص: ١١٧.

نشير إلى أن الأخصائيين يؤكدون على ضرورة تدريب الشخص على نطق الحروف بعد سد الفجوة؛ وذاك بتمارين ضبط عملية إخراج الهواء، وتمارين الشفاه وكذا تمارين اللسان.

٣)- الحبسة: Aphasia

الحبسة في اللسانيات الحديثة تدل على« فقدان القدرة على التعبير بالكلام أو بالكتابة، أو عدم القدرة على فهم معنى الكلمات المنطوق بها، أو ايجاد الأسماء لبعض الأشياء والمرئيات، أو مراعاة القواعد النحوية التي تستعمل في الحديث أو الكتابة..» [١].

هذه المظاهر المرضية جميعها تشترك في مصدر واحد يسببها هو الجهاز العصبي المركزي أي الدماغ، فقط تختلف بناءاً على اختلاف موضع الإصابة من ذاك الجهاز[٢]، إشارة إلى أن الحبسة قد تنشأ في بعض الأحيان عن دواعٍ وظيفية[٣] كالخجل أو الدهشة أو الخوف..، ثم أن هذا الداء لا يوصف به الشخصُ إلاّ إذا اكتسب نظاما لغوياً معيناً؛ حيث لا يمكن وصف الأصم الأبكم أو الشخص الذي لا يتقن لغة ما بأنهما مصابين بحبسة؛ لأنهما لم يمتلكا اللغة فيفقدانها، ومصطلح الحبسة لا يطلق إلا على فقدان اللغة بعد امتلاكها.

ويقسم الباحثون احتباس الكلام إلى[٤]:

أ)- حبسة حركية[٥]:

هذا النوع من الحبسة يفقد معه المريض القدرة على الكلام بصوت مسموع، وكذا القراءة بصوت مسموع، وحتى إعادة الكلمات المسموعة وإن كان يفهمُ ما يقرؤه في الصحف والمجلات، وما يدور حوله من حديث وما يوجه إليه من أسئلة.

---

[١]- المصدر السابق. ص: ٥٧.

[٢]- يراجع: المصدر نفسه والصفحة نفسها، ومحاضرات في علم النفس اللغوي، حنفي بن عيسى. ص: ٢٩٨.

[٣]- يراجع: اللغة والتواصل لدى الطفل. ص: ٢٥٠-٢٥١.

[٤]- ينظر: أمراض الكلام، ص: ٥٨ وما بعدها، وتصنيفات الحبسة، مقال لـــ: د. البشير شرفوم. مجلة المبرِّز، المدرسة العليا للأساتذة في الآداب والعلوم الإنسانية- الجزائر (جويلية، ديسمبر) العدد: ١٤-٢٠٠٠م، ص: ١٢٢.

[٥]- تسمى حبسة بروكا أيضاً، وهو اسم جراح فرنسي اكتشفها، حيث لاحظ هذا الجراح حدوث خلل في الجزء الخارجي من التلفيف الجبهي الثالث في المخ والقريب من مراكز الحركة لأعضاء الجهاز الكلامي. ينظر: اللغة والتواصل لدى الطفل. ص: ٢٥١.

الحبسة الحركية تنشأ عادة من إصابة الدماغ نتيجة الحوادث، أو الإصابات أثناء الحمل، أو عند الولادات العسرة. وتأخذ أشكالاً منها: أن المصاب لا يتعدى محصوله اللغوي كلمتين: نعم أو لا، وأن يقتصر حديثه على لفظ واحد لا يغيره مهما تنوعت الأحاديث أو الأسئلة الموجهة إليه، كأن يقول: محمد، محمد، محمد،... فقط.

بـ)- حبسة حسية: (حبسة فيرنيك Wernicke)

المصابون بهذا النوع من الحبسة يعانون من تحطيم الصورة الصوتية للكلمات بسبب الخلل المتواجد في المركز النهائي للعصب السمعي[1]، بمعنى أنهم يفقدون القدرة على تمييز الأصوات اللغوية المسموعة وإعطائها دلالاتها، فتجد الشخص يسمع الحرف كصوت إلا أنه يتعذر عليه ترجمته، ومثاله أنك لو طلبت من مريض أن ينطق حرف " الباء" نطقه "فاء" على العكس منه إذا قرأه، فإنه ينطقه صحيحاً. وهذا يجعل الحبسة الحسية متصلة بالإدراك السمعي لا بالإدراك البصري[2].

ما يميز هذا النوع من الحبسة أنها قد تكون مقصورة على بعض الحروف، وقد تكون شاملة لجميع الحروف الهجائية، ثم إن لغة المصابين بها لغة غريبة لا يتيسر فهمها إلا للأشخاص المتصلين جداً بأولئك المرضى[3].

جـ)- حبسة كلية:

هذه الحبسة تشترك فيها الحبستان سابقتا الذكر؛ أي أن المصاب يشكو من عدم المقدرة على التكلم، ويشكو في الوقت نفسه عدم القدرة على فهم مدلول الكلمات التي يسمعها. وعلة هذا الداء جلطة أو نزيف دمويين في الدماغ.

---

(١)- يراجع: تصنيفات الحبسة، البشير شرفوم. ص: ١٢٢.

(٢)- ينظر: أمراض الكلام. ص: ٥٩- ٦٠.

(٣)- أورد الدكتور مصطفى فهمي في كتابه "أمراض الكلام" أمثلة على ذلك منها: أنه سأل طفلاً مصاباً بهذا النوع من الحبسة، ماذا أكلت اليوم في الغذاء؟ فأجاب: ممَّ بب، فتعذر على الدكتور فَهْمَهُ إلى أن تدخلت والدة الطفل وقالت أنه يقصد: كرنباً. وأمثلة أخرى أوردها لطفلة تقول: كسه وتقصد مدرسة، تاس وتقصد شباك، تبك تقصد مكتب... وغيرها. ينظر: أمراض الكلام. ص: ٦٠- ٦١.

د)- حبسة نسيانية:

هذا النوع يعجز فيه المصاب عن ذكر أسماء الأشياء التي في مجال بصره؛ أي التي يطلب منه تسميتها، في حين أنه يكرر الكلام بشكل عادي.

هـ)- حبسة كتابية:

الحبسة الكتابية هي فقدان القدرة على الكتابة، يتسبب فيها شلل في ذراع اليد اليمنى (عند الشخص الأيمن) ناتج عن تلف أو إصابة في مركز حركة اليدين بالدماغ[١].

ويعمد الأخصائيون في علاج الحبسة بأنواعها إلى تدريب المصاب على الكلام من جديد، وتكرار نماذج الكلام التي نسيها، في الوقت الذي يؤكدون فيه أن العوامل النفسية كالتشجيع والسرور والغبطة لها بالغ الأثر في إعانة المريض على استرجاع ما فقده[٢].

٤)- اللجلجة: Stuttering

هذا المصطلح يرادف كلاً من التهتهة والتأتأة، ويطلق للدلالة على الاضطراب الحاصل « في العملية اللغوية... وذاك نتيجة الانسداد الحنجري المتقطّع والمهتز، أو نتيجة التطويل في الصوت وامتداده في المقطع اللغوي»[٣].

ما تتميز به اللجلجة هو تلك التغيرات الغريبة على وجه المصاب، مثل انتفاخ الخدين وبروز الفم، وتقطيب الحاجبين..، يصحب ذلك اضطراب في حركتي الشهيق والزفير أثناء النطق؛ كانحباس النفَس ثم انطلاقه أو تطويله.

ولقد تعددت النظريات حول أسباب اللجلجة، فبعضها تقول بأنها تنشأ عن أسباب عضوية تؤدي اضطرابات عصبية مرتبطة بوظيفة التلفظ والتحكم في الصوت، ونظريات ترى أن اللجلجة مظهر من مظاهر اضطرابات نفسية ومن ذلك الحرمان العاطفي والصراع النفسي والخوف وانعدام الأمن والطمأنينة؛ وهي أوسع النظريات تفسيراً وأكثرها قبولاً عند المتخصصين[٤]، كما أن هناك نظريات تقول بأن اللجلجة سلوك متعلم[٥].

---

(١)- يراجع: المصدر السابق. ص: ٦٦.

(٢)- يراجع: المصدر نفسه. ص: ٦٦- ٦٧.

(٣)- قضايا أساسية في علم اللسانيات الحديث، مازن الوعر. ص: ٥٣٦.

(٤)- ينظر: المصدر السابق. ص: ١٣٣، ومحاضرات في علم النفس اللغوي. ص: ٣٠٧.

(٥)- ينظر: اللغة والتواصل لدى الطفل. ص: ٢٣٦، واللغة بين النظرية والتطبيق. ص: ٣٩٦.

ولتوضيح داء اللجلجة يمكن أن نسرد مظاهره كالآتي[١]:

- نطق حرف الميم أو الحاء في كلمة "محمد" أكثر من مرة مثل: م م م... محمد.
- نطق حرف الميم مرة واحدة ثم توقف، ثم استرسال في الكلمة مثل: مُ ← توقف ← حَمَّد.
- التوقف قبل نطق الكلمة ثم نطقها دفعة واحدة.

إن اللجلجة مرض محيّر، ذاك أن المصاب بها إذا أراد أن يتكلم بطلاقة استطاع ذلك؛ كأن يهمس أو يتحدث بإيقاع مميز أو يغني.. وما إلى ذلك، والظاهر أنها لا تحصل إلا كمظهر للهيبة أو القلق أو الشعور بأن الكلام مهم أو النرفزة[٢]، وبهذا كان علاجها علاجاً معقداً يختلف باختلاف المذاهب والآراء في أسبابها، وإن كان ما يقرره الأخصائيون أن الاسترخاء، وتعليم الكلام من جديد، وتخفيض عملية السمع[٣] ، واستخدام النظم المقفى في الكلام،.. كلها مما يساعد المتأتئين على التخلص من مرضهم، وخاصة الاسترخاء الكلامي؛ وهو الكلام بطريقة متأنية متراخية متكاسلة، هذا النمط كما يقول النفسانيون يصرف نظر المصاب ويلهيه عن عملية الكلام التي تبعث فيه الاضطراب والتعثر ويخلصه من اللجلجة[٤].

٥)- السرعة في الكلام: Cluttering

المصاب بهذا العيب يتحدث بسرعة كبيرة في نطق الكلمات« ويصاحب تلك الحالة مظاهر جسمية وانفعالية غير عادية »[٥]، مثل الحركة الكثيرة. وطبعاً هذا الداء يجعل فهم الكلام صعباً كثيراً، ويعالج بتعليم المريض الكلام بهدوء وبطء.

٦)- عيوب اللسان:

لما كان الكلام يرتكز كثيراً على اللسان فإن العملية اللغوية حتماً ستتأثر إذا ما أصيب هذا العضو بمشكل، وأشهر العلل التي قد تصيب اللسان -كعضل- هي الضخامة (Macroglossia)، وإن كان هذا لا يخضع إلى معيار معين سوى أنه يكون كبيراً جداً عن

---

(١)- يراجع: اللغة والفواصل لدى الطفل. ص: ٢٤٣.

(٢)- يراجع: المصدر نفسه. ص: ٢٤٥.

(٣)- أكدت التجارب أن المصاب باللجلجة إذا ما خُفِّض ما يسمعُه من كلامه إلى درجة معينة فإنه إلى حد كبير تقل مشكلته صعوبة وألماً، ما يساهم في شفائه من مرضه. ينظر: قضايا أساسية في علم اللسانيات الحديث. ص: ٥٤٤.

(٤)- يراجع: أمراض الكلام. ص: ١٦٣ وما بعدها، وقضايا أساسية في علم اللسانيات الحديث. ص: ٥٤٤.

(٥)- مقدمة في الاضطرابات اللغوية، فاروق الروسان. ص: ٢٠.

الفك السفلي. هذه الضخامة تولد إعاقة للسان عن الحركة داخل الفم ما يؤدي إلى تداخل النغمات وعدم تمييزها.

ومن العيوب التي تصيب اللنسان أيضاً ما يسمى حديثاً بتصلب اللسان (Ankyglossia)، إذ يُعرف لهذا الداء شكلان اثنان، أولهما: اتصال الرباط الذي تحت اللسان به حتى طرفه فيمنعه من الحركة، وتعالج هذه الحالة عادة بقطع ذاك الرباط قدر ما يتحرك طرف اللسان بين الأسنان وارتفاعه إلى سقف الفم. وثانيهما: أن يكون بجدر اللسان مرض يعوق حركته عن التقدم أو التراجع فيكون اللسان متصلباً ممنوعاً من الحركة، وعلاج هذه الحالة جراحي أيضاً. والظاهر أن عدم استطاعة اللسان الحركة في كلتا الحالتين السابقتين يُفسد الكلام بإضاعة الكثير من الأصوات[1].

٧)- اضطرابات الصوت:

في هذا النوع من الأمراض تُعرف عيوب كثيرة تتصل بجانب التصويت منها: علو الصوت كثيراً أو انخفاضه كثيراً، وينشأ هذان عادة من خلل في حاسة السمع؛ فالشخص الذي يعاني من ضعف في السمع، إما أن يتحدث بصوت عالٍ جداً كونه يحاول سماع كلامه وفي ذلك إزعاج للسامعين، وإما أن يتحدث بصوت منخفضٍ جداً ظناً منه أن صوته مرتفع وهو ليس كذلك.

ومن اضطرابات الصوت أيضاً ما يحدث نتيجة إصابة الحنجرة أو اللهاة بالأورام والالتهابات، فيكون الصوت غليظاً أو رقيقاً جداً، أو به بحّة، أو أن يأتي الكلام مهموساً بسبب شلل من الأوتار الصوتية المكسبة الجهر للأصوات[2].

والواقع أن هذه المشاكل تسبب كثير الحرج والإزعاج عند الاتصال بالآخرين، ويتوقف علاجها على ضبط مصدر العلة بدقة ليتسنى تخليص المريض منها.

٨)- العيوب في القدرة السمعية:

علمنا فيما سبق أن السمع أصل اكتساب اللغة المنطوقة، والفاقدون للسمع لا يتكلمون، وأما ضعافه فإنهم يكتسبون اللغة على قدر قدراتهم السمعية.

---

(١)- يراجع: اللغة والتواصل لدى الطفل. ص:٢١٢.

(٢)- يراجع: المصدر نفسه. ص: ٢٢٧ وما بعدها.

ضعف السمع أو المشاكل الأخرى التي تصيب هذه الحاسة قد تكون في الأذن الخارجية أو الوسطى أو الداخلية[١]، وأهم العيوب الكلامية التي تنتج عن ذاك الداء هو التطور غير العادي في اكتساب اللغة؛ حيث ما يفتؤ يكون بطيئاً متناقلاً من جهة، ومن جهة أخرى ما يصاحب ذاك الإكتساب من إلتواء النطق بسبب عدم التمييز بين الأصوات اللغوية، ما يؤدي إلى الإبدال في الكلام وكثيرٍ من التشوهات[٢].

المرضى بضعف السمع يحتاجون إلى العلاجات العضوية من مكامنها للتخلص من دائهم، كما يحتاجون إلى تمرينات لتقوية السمع، وتمرينات على النطق الصحيح لاكتساب اللغة واستعمالها بالشكلين الأمثلين.

٩)- الإبدال: dyslalia

هو« أن يبدل الفرد حرفاً بآخر من حروف الكلمة» [٣]، وهذا العيب وظيفي الأصل؛ أي أنه لا ينبعث عن مشكل أو خلل عضوي في جهاز الكلام، ومثاله أن يقول شخص: شاخن بدل ساخن، أو قش صعرك، بدل قص شعرك، أو الأودات بدل الأدوات، أو اللّقَم بدل القلم... وغير ذلك.

إبدال الحروف يتسبب فيه عوامل أهمها[٤]:

أ) المشاكل في جهاز السمع:

بحيث إن المرء إذا كان يعاني من عيب في جهازه السمعي بجعله قاصراً عن إدراك بعض الأصوات، فإنه بلا شك يلجأ إلى تأويلها فيُبدلها بغيرها.

ب) المستوى الفقير للكلام:

هذا اعتباراً بأن الشخص إذا لم يتعرض لنماذج كثيرة من الكلام فإنه من ذاته سيبتكر التصاريف للكلمات والتي تكون في أحايين كثيرة منافية لنظام اللغة.

---

(١)- ينظر: أمراض الكلام. ص: ١٠٨.

(٢)- يراجع: المصدر نفسه. ص: ١١٠- ١١١، واللغة والفواصل لدى الطفل. ص: ٢١٩ وما بعدها، واضطرابات اللغة، ديدييه بورو. ص: ١٠٨.

(٣)- مقدمة في الاضطرابات اللغوية، فاروق الروسان. ص: ١٨ وما بعدها.

(٤)- يراجع: اللغة والفواصل لدى الطفل، ص: ٢١٦.

ج) قوة العادة:

ذلك أن الشخص إذا ما تعود على نطق أصوات (حروف) بأشكال غير صحيحة وتم التغاضي عنها من قبل المحيطين به، فما تلبث أن ترسخ عنده ويصعب التخلص منها، ما يؤثر على جودة لغته.

هذه الأشكال من العيوب الكلامية التي ذكرنا لا تَرْبُ أن تكون ناشئة عن عيب عضوي أو سبب وظيفي.

٣-١-٣ أسباب الأمراض اللغوية وعلاجاتها

٣-١-٣-١ أسباب الأمراض اللغوية

إن العيوب الكلامية كما تقرر اللسانيات الحديثة في أصلها ناشئة عن اضطرابات جسمية أو نفسية أو عقلية أو سمعية، أو أنها أخطاء تعلم وما إلى ذلك. ويضبط الأخصائيون أسبابها في قسمين رئيسيْن هما[1]:

١)- الأسباب العضوية:

هذه الأسباب تكون عيوباً في جهاز النطق كالشق في الحنك أو الشفاه أو عدم انتظام الأسنان أو ضخامة أو قصر اللسان، أو مشاكل في الفكين أو في الشفتين أو في الحنجرة والتي تؤثر كلها على اللغة بالفساد والتشويه والإبهام.

كما أن هذه الأسباب قد تكون اضطرابات في الجهاز العصبي المركزي (الدماغ) كالتلف أو الإصابة، علماً أن هذا الجهاز هو المسؤول عن جميع أنشطة الإنسان ومن بينها اللغة، وإن أي خلل يصيبه ما يلبث ظاهراً في النطق كالحبسة والخرس...وغيرها.

ومن الأسباب العضوية المؤدية إلى خلل في الكلام ما يتصل بحاسة السمع من اضطراب في التكوين البنيوي أو إصابة في الأعصاب أو غير ذلك.

إشارة إلى أن المكان المصاب في جهاز النطق يؤدي إلى تشوه الحروف التي تتحقق بذاك العضو (أو المكان)، في الوقت الذي يذهب الباحثون إلى أن« الأمراض مثل أمراض الصدر والقلب، والجيوب الأنفية، وأمراض اللوزتين والزوائد الأنفية تؤثر في لغة الفرد وكلامه» [2].

---

[1]- ينظر: مقدمة في الاضطرابات اللغوية. ص: ٢٣، واللغة والتواصل لدى الطفل. ص: ٢٦٠.

[2]- اللغة والتواصل لدى الطفل. ص: ٢٦٢.

والحقيقة أن المشاكل العضوية المؤدية لاضطراب اللغة ما تلبث أن تكون مدعاة إلى الاضطرابات النفسية التي بدورها تزيد من حدة المرض، وتصعّب من علاجه؛ فمثلاً قد يحصل أن يصاب شخص بالثأثأة (ينطق السين ثاءً) فيُغرقَ بالعطف والحنان من قبل الأهل كونه مريضاً في نظرهم ما يؤدي به إلى فقدان الثقة في النفس، أو أن يُسلط عليه النقد والإعابة فتنمو فيه مشاعر النقص وإذلال النفس فيركن للانطواء والخوف من الكلام؛ لأنه كما تكلم سُخِر منه، وهو في كلا الحالتين معرّض للصراع النفسي الأمر الذي يتظافر مع المشكل العضوي فيؤثر بالغ الأثر في حياته[1].

٢)- الأسباب الوظيفية:

هذه الأسباب تعود إلى عوامل نفسية كالخوف والخجل مثلاً؛ فقد أثبتت الدراسات أن أساليب التنشئة القائمة على العقاب الجسدي خاصة مدعاة لحصول اللجلجة أو السرعة في الكلام..، والهيبة والخجل يورثان التلعثم والحبسة. أو أنها تعود إلى عوامل اجتماعية، كالحرمان البيئي حيث أشارت البحوث إلى أن أطفال الملاجئ والذين يكونون محرومين من الجوّ الأسري الطبيعي والذين لا تتوفر لديهم عوامل التربية والتعليم اللغوي والنشأة الاجتماعية الجيدة، أشارت البحوث إلى أنهم يتأخرون لغوياً عن غيرهم من الأطفال[2]، كما أن التعليم السيئ للغة والكلام القليل هي أيضاً مما يلحق بلغة الأفراد تشويهات ومعايب كثيرة.

ونذكر أن من الأمراض اللغوية ما يقتصر سببه على الناحية العضوية فقط، أو على الناحية الوظيفية فقط، ومنها ما قد يشترك السببان في بعثه مثل الثأثأة التي قد تنتج عن سوء تعلم، وقد يسببها عدم انتظام الإنسان.

٣-١-٣-٢ علاج الأمراض اللغوية

إن انفتاح علم اللسانيات الحديث على علوم أخرى كالطب وعلم النفس وعلم الحواسيب وغيرها مكنه من ضبط منحى الأمراض اللغوية تشخيصاً وعلاجاً، ونجد حديثاً ثلاث علاجات تتكامل من أجل تخليص المصابين من معاناتهم هي:

١)- العلاج العضوي، ٢)- العلاج النفسي، ٣)- العلاج الكلامي.

---

(١)- يراجع: أمراض الكلام. ص: ١٢٤.

(٢)- يراجع: اللغة والتواصل لدى الطفل. ص: ٢٦٢ وما بعدها.

١)- **العلاج العضوي:**

هو التوجه إلى إزالة النقص أو العيب أو سوء التركيب في جهاز الكلام. ومن ثم فإن علاجاً آخر لن يُؤتِيَ ثماره ما لم يتم التخلص من الفساد العضوي، وجعل جهاز النطق كفءاً لأداء عمله.

٢)- **العلاج النفسي:**

لا شك أن العلاج النفسي يقلل من حدة صراعات المصاب النفسية بل يكون مدعاة لشفائه تماما من بعض الأعراض المرضية.

٣)- **العلاج الكلامي:** هذا العلاج هو التدريب على استعمال اللغة بعد التصحيح العضوي والعلاج النفسي، ويرتكز العلاج الكلامي على الإعادة والتكرار والمشاهدة والسمع.. وغيرها[١].

وبهذا إن تطور العلوم وتكاملها واعتماد الآلات حَدَا بدراسة المرض اللغوي حديثاً إلى بالغ الدقة والشمولية، ما لم يَعُدْ على دراسة الظاهرة اللغوية إلا بكثرة الإلمام ووافر المعرفة.

ويمكننا الآن أن نتساءل عن موقع البحث العربي القديم في ذات الموضوع من البحوث الحديثة؛ تقارب وتساوٍ؟ أم تباعد وتناءٍ؟.

لأجل أن نجيب على هذا السؤال سنعمل على إجراء بعض المقارنات على بعض النتائج المتوصل إليها في البحثين العربي القديم واللساني الحديث كما يأتي.

---

[١]- ينظر: أمراض الكلام. ص: ١٢٤- ١٢٥، ١٦٣.

في حين أننا نجد البحوث الحديثة قوامها أدوات الكشف الدقيقة ووسائل القياس ومعدات التجارب المتطورة، ما يجعل نتائج البحث في العلل اللسانية اليوم متسمةً بالدقة والموضوعية.

ما نخلص له هو أن تناول القدماء لموضوع العلل اللسانية كان علمياً ومقبولاً بالنظر إلى امكاناتهم المتوفرة، وأما تناول المحدثين له يُعد أكثر علمية ودقة بالنظر إلى المعطيات العلمية المتوفرة، علماً أن نتائج القدماء كانت ولا تزال تمثل المرتكز المعرفي والمنهجي في تناول هذا الموضوع.

٣-٢-٢ مقارنة بعض الأنواع المرضية

لقد درس العرب القدماء العلل اللسانية مع فقدهم للوسائل الكاشفة لذلك عدا وسيلة التذوق والتجربة الذاتية، ثم إن تناولهم لهذا الموضوع كان بإشارات عابرة مستندين فيها إلى الذوق والحس المرهف، ومع ذلك حققوا نتائج قريبة جداً من نتائج البحث الحديث، الأمر الذي يمكن أن ندركه من خلال عرضنا لمقارنة بين بعض الأشكال المرضية من حيث أسبابها والعلاجات المقترحة لها.

١) -الحبسة:

حديثاً تعرف بالآفازيا، وتمكّن الباحثون من ضبط مصدرها بدقة متناهية وهو الجهاز العصبي المركزي أو الدماغ، الذي قد يصاب بتلف أو ورم أو نزيف في مناطق الكلام فينعكس فقداناً للنطق وانحباساً أو تشوهاً واضطراباً. كما أنهم حددوا مظاهر أو أنواع لهذا الداء على حسب موضع الإصابة من ذاك الجهاز وهي: حبسة بروكا، وحبسة فيرينك، والحبسة الكلية، والحبسة النسيانية(الإسمية)، وحبسة الكتابة[١]، هذا في حين أنهم يرجعون الحبسة أحياناً إلى أسباب خارجة الجانب العضوي كالخوف أو الهيبة أو الدهشة وغير ذلك، هذا عن البحث الحديث.

نتائج علمائنا القدماء في الحبسة لا تتعارض مع النتائج الحديثة في مصدر العلة المسببة لهذا الداء، فقد رأينا أنهم فطنوا إلى نوعين من الحبسة، نوع ناشئ عن نقص أو عيب في جهاز النطق، ونوع يعود إلى عوامل خارجة عن ذاك الجهاز؛ نفسية أو غيرها.

---

[١]- يراجع: أمراض الكلام. ص: ٥٧، وتصنيفات الحبسة، البشير شرفوم. ص: ١١٧.

٣-٢ مقارنة بعض النتائج القديمة بالحديثة

٣-٢-١ مقارنة منهج البحث في المرض اللغوي

علمنا فيما سبق أن علماء العرب القدماء قد استندوا في دراسة المرض اللغوي إلى منهجين اثنين هما: وصف العلل اللسانية والتعريف بها من جهة، ومن جهة تعليل تلك العلل بالبحث في أسبابها واستنتاج علاجاتها، اعتماداً منهم على الذوق اللغوي والحس المرهف فقط المنبنيين على التجربة والمران.

وهم في حقيقة الأمر بحثوا المرض اللغوي بحثاً علمياً دقيقاً ومضبوطاً قائماً على الملاحظة والتجريب والموضوعية، وهي الأسس ذاتها التي تقوم عليها البحوث الحديثة.

إن موضوعية علمائنا تتبين من خلال نبذهم للذاتية التي تدفع بهم إلى إطلاق الأحكام دونما استقراء شامل وملاحظة عميقة وتجربة دقيقة، بل على العكس من ذلك تماماً؛ إن إدراكهم لعلمية الموضوع الذي يبحثون فيه جعلهم يستندون إلى مرتكزات علمية؛ فلاحظوا بدقة الاختلاف الحاصل بين الحالات المرضية وتوصلوا إلى معرفة مسبباتها من خلال ما أجرَوْه من تجارب وملاحظات، يشهد لهذا رواية الجاحظ للتجارب واعتباره بها، قال مثلاً:« قال أهل التجربة: إذا كان في اللحم الذي فيه مغاور الأسنان تشمير وقِصَرُ سَمْكٍ ذهبت الحروف وفسد البيان»[١]، وقال أيضاً راوياً لكلام أحدهم ثم مصدقاً ومعتمداً له:« وقال محمد بن عمر الرومي مولى أمير المؤمنين: قد صحت التجربة وقامت العبرة على أن سقوط جميع الأسنان أصلح في الإبانة عن الحروف منه إذا سقط أكثرها وخالف أحد شطريها الشطر الآخر، وقد رأينا تصديق ذلك في أفواه قوم شاهدهم الناس بعد أن سقطت جميع أسنانهم، وبعد أن بَقِيَ منها الثلث والربع» [٢].

بعد ملاحظتهم الداء استنتجوا الدواء الناجح للتخلص من تلك الأمراض، هذا المنهج ذاته هو منهج اللسانيات الحديثة في دراسة الظاهرة اللغوية عموماً والمرض اللغوي خصوصاً؛ استقراءٌ شامل يقوم على ضبط العلل اللسانية في اللغات جميعها، وملاحظةٌ دقيقة تستند إلى

---

[١]– البيان والتبيين. مج: ١، ج: ١، ص: ٦١.

[٢]– المصدر نفسه والصفحة نفسها.

فبدقة متناهية يذكرون السبب العضوي المؤدي إلى انحباس الكلام وهو الخلل في الدماغ أو الأعصاب، قال ابن سينا:«..إن الخرس وغيره من آفات قد من يكون من آفة في الدماغ، وفي مخرج العصب الجائي لإلى اللسان المحرك له»[١]، حتى إن الدكتورين عبد الناصر كعدان وعبد الفتاح حنون يصنفان كلام ابن سينا في الأسباب العصبية المركزية[٢]؛ وبذلك يتطابق كلام ابن سينا مع البحوث الحديثة، فقط ما يعوزه هو التفصيل الدقيق الذي يميز الدرس اللساني الحديث في ضبط الإصابات في الدماغ وأماكنها وأنواع الحبسات الناتجة عنها.

أما عن الأمور الوظيفية التي تسبب انحباس الكلام فقد فطن لها العرب وضبطوها في الخوف والدهشة والخجل وقلة التمرس على الكلام والقلق، ما يتولد عنه تغيرات فيزيولوجية من رعشة وتعرق هي مظاهر الحصر والبهر والعِيِّ قال الجاحظ:«.. وأعيب عندهم عن دقة الصوت وضيق مخرجه وضعف قوته أن يعتري الخطيبَ البهْرُ والارتعاش والرعدة والعرق..»[٣].

والواضح أن علماءنا انصرفوا أكثر ما انصرفوا إلى توضيح الأسباب الوظيفية المسببة للبهر والحبسة والعِيّ في الكلام بسبب اهتمامهم بالبلاغة والفصاحة والخطابة..، في الوقت الذي لم يُتسنّ لهم التدقيق في المكامن العضوية المسببة لتلك العيوب.

ثم إن ما ظهر لنا من خلال المعالجات الموصوفة حديثاً للحبسة والقائمة على العلاج الكلامي كما يذهب إليه الدكتور مصطفى فهمي في كتابه "أمراض الكلام"؛ وهو التدريب من جديد على تعلم اللغة والتمرس على استعمالها[٤]، ما ظهر لنا هو أن قدماء علماء العرب هم الآخرون عمدوا إلى هذا العلاج إضافة إلى العلاجات الطبية العضوية[٥]؛ فهم كثيراً ما يوصون بضرورة تقليب اللسان والتدرب على الكلام علاجاً للعِي والحبسة ووقاية منهما[٦].

وبهذا نجد أن ما عرفه علماؤنا عن الحبسة أسباباً وعلاجاتٍ لا يختلف عن ما هو معروف حديثا إلاّ في نواحٍ تحتاج إلى الدقة المتناهية والوسائل المتطورة.

---

(١)– القانون في الطب. ج: ٢، ص: ٣٠٦- ٣٠٧.

(٢)– يراجع: أمراض اللسان في كتاب القانون في الطب لابن سينا، مقال سابق.

(٣)– البيان والتبيين. ج: ١، ص: ١٣٣.

(٤)– ينظر: أمراض الكلام. ص: ٦٦- ٦٧.

(٥)– ينظر: القانون في الطب. ج: ٢، ص: ٣٠٢، والحاوي في الطب. مج: ٢، ج: ٣، ص: ١٢٤ ، ١٥٧ وما بعدهما.

(٦)– يراجع: العقد الفريد. ج: ٢، ص: ٣٠٤- ٣٠٥، والبيان والتبيين. ج:١، ص: ٢٧٢.

٢)-اللجلجة:

عيب من عيوب الكلام عرفه القدماء بقولهم:« تَمنُّع أول الكلام فإذا جاء منه شيء اتصل به»[١]، هذا الداء علمنا أنهم فطنوا إلى منشئه وهو إصابة عضل الحنجرة بتمدد أو استرخاء كما يقول ابن سينا[٢]، الأمر الذي يتطابق تماماً مع ما يعرف حديثاً عن مصدر ذاك العيب وهو الإنسداد الحنجري المتقطع والمهتز على حد قول الدكتور مازن الوعر[٣].

وقد علمنا أن النظريات الحديثة القائلة بأن سبب هذا الداء نفسيٌّ محض؛ كالحرمان العاطفي أو الخوف أو القلق أو عدم الشعور بالأمن..[٤] هي أحسن النظريات وأوسعها في تفسيره. إن مذهب هذه النظريات كان معلوماً من قِبَل علماء العرب، ولا أدل على ذلك من ما أورده الرازي الطبيب في كتابه "الحاوي" عن الرجل الذي اشتكى إليه صعوبة إخراج الكلام، فقال:« يعرض لِيَ انقطاعُ الصوت إذا خاطبت بخصومة أو خَطَبتُ»[٥]، وفي هذا إشارة واضحة إلى أن اللجلجة لا تحصل إلا كعارضٍ جسماني لحالة نفسية يشعر فيها المرء بالحرج والارتباك والرهبة.

ولقد كان معروفاً قديماً أن مما يورث اللجلجة والترداد في الكلام عدم التمرس على الكلام ذاته، وقلة الخواطر وسوء الإهتداء إلى جياد المعاني، والخوف والاندهاش، وهي كلها مما عابه العرب قديماً ونبذوه قال الشاعر: [من الرجز]

لَيسَ خَطِيبُ القومِ باللَّجْلاَجِ ... وَلاَ الذي يَزْحَلُ كَالهِلْبَاجِ[٦]

وَرُبَّ بَيْـــدَاءَ ولَـــيْلٍ دَاجٍ ... هُنَكْتُهُ بالـــنَّصِ وَالإِدلاَجِ[٧]

ثم إن أكثر ما يعالج به أخصائيو العيوب الكلامية اليوم اللجلجة هوالاسترخاءُ؛ كون اللجلجة -كما ذكرنا- عارضاً جسمانياً لمرض نفسي يفقد معه المصاب اتّزانه العصبي في أعضاء

---

(١)- العقد الفريد. ج: ٢، ص: ٣٠٦.

(٢)- ينظر: القانون في الطب. ج: ٢، ص: ٣٠٦.

(٣)- ينظر: قضايا أساسية في علم اللسانيات الحديث. ص: ٥٣٦.

(٤)- ينظر: أمراض الكلام. ص: ١٣٥.

(٥)- الحاوي في الطب. مج: ١، ج: ٣، ص: ١٥٨.

(٦)- يزحل: يزل عن مقامه، والهلباج: الأحمق الشديد الحمق.

(٧)- يراجع: البيان والتبيين. ج: ١، ص: ٣٩.

الكلام، وعلى ذلك يؤدي إرخاء العضلات والتكلم بالهوينى واليسر إلى نتائج قيمة في تحسين حال المتلجلج ودفع ذاك المرض عنه[1].

هذا العلاج بعينه يصفه قدماء علماء العرب لتخليص مرضى اللجلجة من دائهم، فابن سينا يقول في من ينحبس كلامه في أول الأمر ليسترسل بعد ذلك:« ومثل هذا الإنسان يجب أن لا يستعد للكلام بنَفَس عظيم وتحريك للصدر عظيم، بل يشرعُ فيه بالهوينى، فإنه إذا اعتاد ذلك سَهُل عليه الكلام واعتاد السهولة فيه»[2]. ومثل هذا أشار به الرازي على المريض الذي اشتكى إليه عسر خروج الكلام عنده، قال:«... وكان ذلك بهيئةٍ رديئة في حنجرته، وكان الأطباء يعذبونه بالأدوية، فأشرتُ عليه بقبض صدره في ابتداء كلامه قبضاً يسيراً، ثم إنه بعد ذلك كان إذا أراد أن يقبضه غايةَ انقباضه قبضَه، فقال: ما أحسن ما أشرتَ علي، وعَجِبَ من نفسه كيف لم يفهم ما يعرض له...، فأما إذا تكلم على أهون رَسْلِهِ وابتداء كلامه يكون بلا مشقة.»[3]، وهاتان دعوتان واضحتان إلى ضرورة الاسترخاء والتمهل أثناء الكلام، فإنه متى ما لازم المرء هذه الوصفة كان أحرى بزوال اللجلجة عنه.

ومن هذا أيضاً نتبين التقارب الكبير الحاصل بين مدارك علماء العرب في داء اللجلجة وبين النتائج المتوصل إليها حديثاً.

٣)- عدم انتظام الكلام:

يُحدث عدم انتظام الأسنان وعدم انطباق الفكين التام مشكلات صوتية تُسبب فساد وتَشوّهَ الكلام، وخاصة مع الحروف الشفهية كالباء والأسنانية كالذال والسين وغيرها حسب ما تقرره البحوث الحديثة[4]؛ وذلك بسبب هروب تيار الهواء عبر الفجوات الحاصلة بين الأسنان وقت تحقيق الحروف.

إنّ البَحَثَة العرب أدركوا دور الأسنان في نطق الحروف والتأثير على صفاتها، وعلموا أن عدم انتظامها صغراً وكبراً، خروجاً ودخولاً أو تساقطاً -وهو ما عُرف عندهم بالشغا- له بالغ التأثير على جودة الكلام وبيانه، قال يونس بن حبيب عن الأسنان أنها:« إذا تمّت تمّت الحروف

---

(1)- يراجع: أمراض الكلام. ص: ١٨١، ١٨٤- ١٨٥.

(2)- القانون في الطب. ج: ٢، ص: ٣٠٧.

(3)- الحاوي في الطب. مج: ١، ج: ٣، ص: ١٥٨.

(4)- يراجع: اللغة والفواصل لدى الطفل. ص: ٢١٣- ٢١٤.

وإذا نُقِصَت نقصت الحروف»[1] ، وقال الجاحظ:« قال سهل بن هارون: لو عرف الزنجي فَرْطَ حاجته إلى ثناياه في إقامة الحروف وتكميل آلة البيان لما نزع ثناياه»[2].

وفي هذا كذلك بيان للتقارب الحاصل بين النتائج العربية ونتائج البحوث الحديثة.

٤)- اضطرابات الصوت:

إن الدراسات الحديثة بما توفر لها من أجهزة دقيقة ومتطورة لقياس الصوت ورصده، تمكنت من ضبط الاضطرابات التي قد تحصل في هذا الجانب بدقة متناهية؛ فعرف من ذلك الصوت العالي جداً، والمنخفض جداً، والرتيب، والأجش الغليظ، والصوت اللاهث، والصوت المبحوح، والأغنّ ..وما إلى ذلك، وهي كلها عيوب ترجع إلى عوامل عضوية تتعلق بجهاز السمع أو بالحنجرة كالشلل في الوترين الصوتيين أو الأورام أو الالتهابات، أو أنها تعود إلى عوامل نفسية أو اجتماعية[3] أو سلوكات متعلمة.

هذه الأمور كانت من مدارك علماء العرب الباحثين فيما يصيب الكلام من التشوه والفساد، فأدركوا أن الصوت قد يغلظ أو يخشن أو يرتعش أو ينقطع أو يقصر أو تصيبه بحوحة...، ما يُبعد الكلام عن الفصاحة والبيان، قال ابن سينا:«... وآفته [أي الصوت] إما بطلانٌ وإما نقصانٌ وإما تغيُّرُ بحوحةٍ أو حدةٌ أو ثقلٌ أو خشونةٌ أو ارتعاشٌ أو غير ذلك»[4] .

واللافت للانتباه أن يتطابق كلام علمائنا القدامى في مواضع كثيرة مع ما تقرره البحوث الحديثة، قال الرازي الطبيب مثلاً:« الصوت يبطل أو يضعف عند آفة تحلّ بالعصب الذي يأتي الحنجرة، أو عند نزلة تَلِي الحلق والحنجرة، أوعند الصياح الشديد، أو عند الورم الحار يحدث أولاً فإن هذا يُورم هذه الأعضاء، أو انقطاع مادة كالحال في ضيق النفَس أو فالج في آلات النفَس أو جراحات الصدر»[5]؛ فالآفة في الأعصاب إما أنها تُضعف الصوت، أو أنها تبطله ألبتة،

---

(١)- البيان والتبيين. ج: ١، ص: ٥٩.

(٢)- المصدر نفسه. ج: ١، ص: ٥٨.

(٣)- قد تتعارف مجتمعات على ظواهر صوتية معينة تكون منبوذة في مواقف أو في مجتمعات أخرى، ومن ذلك الكلام بصوت مرتفع حيث كانت هذه الظاهرة صفة الأعراب وسكان البوادي قديماً، فعِيبَ عليهم فدادتُهم و جفاء صوتهم، وتزيدهم في جهارة الصوت وانتحال سعة الأشداق. ينظر: البيان والتبيين. ج: ١، ص: ١٣.

(٤)- القانون في الطب. ج: ٢، ص: ٣٨٥.

(٥)- الحاوي في الطب. مج: ١، ج: ٣، ص: ١٢٤.

يؤكد هذا الدكتور أنسي محمد أحمد قاسم بقوله:« أما الحقيقة فهي فقدان الصوت؛ فالمتحدث قد لا يكون لديه صوت على الإطلاق إذا ما كانت أعضاء التلفظ مصابة بالشلل»[١]، ويقول: «.. وقد يكون الصوت الضعيف عرضاً لحالة جسمانية مثل شلل paralysis جزئي في أعضاء التلفظ»[٢]، وفي هذا تشابه واضح.

وأما التزلة من البرد إذا أصابت الحلق أو الحنجرة سببت خشونة الصوت والبحة، وكذلك الصياح الشديد وكثرة الترنم؛ من قبيل ما يَحدثُ للحنجرة من التورم والتوتر والإعياء وفي هذا يقال حديثاً:« الصوت العالي يثير إزعاج المستمعين، وكذلك قد يُحدث مرضاً لأعضاء التلفظ مثل عقدة اللسان أو ورم الغشاء المخاطي أو الحنجرة (الصوت المبحوح)»[٣] ،وهذا يظهر عدم الاختلاف بين الدراستين.

بل إننا نجد علماءنا يعالجون تلك الحالات المرضية بالشكل ذاته الذي تميل إليه اللسانيات اليوم[٤]، وليس من العجب أن نجدهم أيضاً يوصون بالوقاية من تلك الأمراض تصديقاً منهم بأن "درهم وقاية خير من قنطار علاج"، قال ابن سينا مثلاً دفعاً للإصابة ببحة الصوت:«.. يجب أن يتجنب كل حامض مالح..»[٥]، ويقول أيضاً في الصوت الخشن:« علاجه الحميّة من الأسباب التي ذكرناها»[٦] ، أي الوقاية منها وهي كثرة الترنم والصياح، وقطع اللهاة، والسهر...

هذا وكثيرٌ مما لم نقارنه مما يزخر به كتابا "القانون في الطب" و"الحاوي في الطب" وغيرهما بنتائج البحوث الحديثة في اضطرابات الصوت أو غيرها من مشاكل النطق يؤكد التقارب الكبير والتشابه الواضح في النتائج التي توصَّل لها علماء العربية القدماء -اعتماداً منهم فقط على الذوق- مع ما توصلت له البحوث الحديثة القائمة على آلات الكشف الدقيقة والوسائل المتطورة.

---

[١]- اللغة والتواصل لدى الطفل. ص: ٢٣١.

[٢]- المصدر نفسه والصفحة نفسها.

[٣]- المصدر نفسه والصفحة نفسها.

[٤]- يراجع القانون في الطب. ج: ٢، ص: ٣٨٥ وما بعدها، والحاوي في الطب. مج: ٢، ج: ٣، ص:١٢٤.

[٥]- القانون في الطب. ج: ٢، ص: ٣٨٧.

[٦]- المصدر نفسه. ج: ٢، ص: ٣٨٩.

تقويم عامّ:

إن بحث علماء العرب القدماء في المرض اللغوي رغم أنه مختلطٌ مجتمع في مصنفاتهم، ورغم عدم انصرافهم له وتخصصهم في بحثه، ورغم عدم تفصيلهم في كثير من جوانبه ورغم فقدانهم الوسائل الدقيقة لكشفه بل اعتماداً منهم على الذوق الخالص والحس المرهف..، رغم ذلك كله إلا أن عملهم كان على درجة من التشابه والتقارب بما توصل له الدرس اللساني الحديث بوسائله المتطورة، وانصراف علمائه إلى ميدان المرض اللغوي الانصراف التام.

ذاك التقارب كان في منهج بحث المرض اللغوي، وكان في معرفة الأسباب الكامنة وراء العلل اللسانية وكان في العلاجات الموصوفة لدرئها، يشهد لهذا ما سقناه من بعض المقارنات قَبْلُ.

وعلى ذلك كلّه جاز لنا القول بأن علماء العربية الأولين ببحثهم المرض اللغوي، كُتِبَ لهم السبق في إرساء ركائز هذا الميدان، لا وبل أمكنهم الوصول إلى الكثير من النتائج القيمة التي لا تَقِل علميةً وموضوعيةً عن نظيراتها في الدرس الحديث، كيف لا وقد اعتمدوا منهجاً علمياً لا يزال معمولاً به حتى الآن، عَنيتُ به من منهج الملاحظة الذاتية.

الخـــاتمـــة:

وبعد..، إن موضوع العلل اللسانية والأمراض اللغوية إذا طُلِبَ بالبحث الجَاد إنما يُحتم على طالبه الإلمام الشامل بعلم الأصوات، وقضايا علم النفس، والإحاطة ببعض مباحث التشريح... لأجل تحقيق النتائج المتسمة بالدقة والعلمية.

وإذ كنا لم نستوفِ من تلك العلوم شيئاً وخضنا في ذاك الموضوع بعملنا هذا محاولين كشف الغطاء عن نِتَاج علماء العرب القدماء فيه، وقراءةَ ما توصلوا إليه في ضوء البحث الحديث؛ فإننا مع عدم الاستيفاء ذاك تمكنا من الخلوص إلى نتائج تعكس دقةً وموضوعيةً وشموليةً تميز بها بحث العرب في هذا الميدان نوضحها كما يأتي:

١. إن موضوع آفات التعبير وعيوب الكلام ليس أمراً تم إدراكه حديثاً عقب الاستفادة من التطور التكنولوجي والتقدم الحضاري الحاصلين، إنما هو أمرٌ قديمٌ قِدَمَ اللغة ذاتها والتي فطن الإنسان إلى أنها قد تصاب بما يجعلها قاصرة عن أداء وظيفتها التبليغية والتواصلية، ولا أدل على ذلك من ذكر القرآن للعقدة التي أصابت النبي موسى، وذكر نَبْذِه لها بعد أن حالت دون فَهْمِ قوله.

٢. العرب القدماء أدركوا أن اللغة هي وسيلة تفرُّد الإنسان، وأداة قوته، والتي بها يُصْنع التاريخ، وتُنشأ الآداب، وتُخَطُّ الفنون، ويُجَسَّدُ التقدم، وبها يُعبّر ويبلغ بأحسن وجوه الأداء، فكرهوا أن تُمَسَّ بتلك الآفات والعيوب التي تهدم الإنسان بهدمها للغة.

٣. إن البحث في العلل اللسانية والاهتمام بالعاجزين عن النطق، ليس للقائلين حق في قولهم بأنه أمر معاصرٌ أولته الأمم المتمدينة وافر الاهتمام وبالغ العناية، وليس لهم من الحقيقة في ذلك شيء؛ لأن علماء العرب القدماء ندبوا أنفسهم منذ ما يقارب الخمس عشرة (١٥) قرناً لإرساء ركائزه وسبر أغواره، في محاولة لتخليص الناطق بالعربية مما يشوّه كلامه، ويرقى إلى مراتب الفصحاء والبلغاء.

٤. العمل الذي قام به البحثة العرب رغم أنه دُوِّنَ في مصنفاتهم مجتمعاً مختلطاً ببحوثهم في الفصاحة والفصحاء والبلاغة والبلغاء..، أو ببحوثهم التشريحية، إلا أنه كان وفق منهج قويم؛ عماده وصفُ كل الحالات التي تمثل انحرافاً عن النطق السليم من جهة، ومن جهة أخرى تعليلها

والبحثُ في مسبباتها ووصف العلاجات لها، تخليصاً للمتكلم من براثنها، واكسابه جودة اللغة والبيان بها.

٥. المنهج الذي استند إليه علماؤنا في بحث الأمراض اللغوية ما قد مكنهم من بلوغ تلك النتائج القيمة، والتي يشهد بقيمتها وصحتها عدم بُعدها أو مخالفتها لنتائج البحوث الحديثة؛ كما هو الحال مع اللجلجة والحبسة ومشاكل الصوت.. وغيرها، بل إنه في أحايين عديدة تتطابق مع النتائج المتوصل إليها حديثاً. هذا في الوقت الذي لم يُعرفوا وسائل كشفٍ وملاحظة دقيقة ومتطورة، بل كان اعتمادهم على الحس المرهف والذوق الراقي النابعين من حُبِّ لغة القرآن والانصراف لهما والمثابرة عليهما.

٦. إن أبرز ما ظهر لنا من خلال بحثنا هذا أن علماء العربية بطرقهم مباحث المرض اللغوي قد فطنوا إلى العلاقة القائمة بين الدماغ والأعصاب من جهة، وبين اللغة من جهة أخرى؛ يظهر ذلك في إدراكهم أن كثيراً من عيوب الكلام يتسبب فيها إصابة تلك الأعضاء أو تلفها وعليه؛ فإن ما يعرف اليوم بعلم اللسانيات البيولوجي أو العصبي الذي يَبحث في الأسس العصبية للغة والكلام، إنما أُرسِيَتْ دعائمه وقامت مرتكزاته على أيدي علمائنا منذ قرون مضت، وهو ما لمسناه من خلال جهود ابن سينا، والرازي على سبيل المثال لا الحصر.

٧. وكذلك الحال مع ما يعرف حديثاً بعلم اللسانيات النفسي الذي يهتم بدراسة العلاقة القائمة بين اللغة وبعض السلوكات الإنسانية، وينظر في الجوانب النفسية المختلفة ومدى أثرها في ممارسة الكلام. هذا العلم ظهرت بوادره هو الآخر على أيدي علماء العربية الأقدمين؛ حيث بحثوا قضايا المرض اللغوي وأدركوا أن جوانب نفسيةً عديدةً هي أصل ومنشأ الصعوبات والمشاكل التي تؤدي بالكلام إلى الفساد؛ من حيث الإنتاج أو الإدراك والفهم، ومن حيث الفصاحة والتعبير بأمثل الوجوه.

هذا وإن بحثَ علمائِنا العرب القدامى قضايا العلل اللسانية إن دل على شيء فإنما يدل على موسوعية مكتبتنا وثراها، وشمولية مصادرها وغناها، بما حوته من معلومات قيّمة في ميادين وعلوم شتى، وبخاصة اللغوية منها، ما يطمئننا لشيء واحد هو أصالة تراثنا وجديته.

هذا ما أمكننا استخلاصه من خلال البحث في هذا الموضوع مع علمنا حاجتَه إلى فضل تأمّل وعمل وإلمام، ولكن العزاء في ذلك أن نكون قد أوحينا إلى من هو أَوْفَرُ علماً وأقدرُ فهماً

وأكبرُ دقة وأكثرُ موضوعية أن ينصرف لهذا الموضوع كاشفاً خباياه، موضحاً ثناياه، قارءاً البحث اللغوي العربي القراءة الصحيحة مبرزاً الدور الرائد لما سبق به الأولون.

وإننا من خلال هذا البحث قد دار في أذهاننا سؤال واختلج أنفسنا مفاده: إذا كان موضوع العلل اللسانية والأمراض الكلامية قد حَظِيَ بالبحث من قِبَلِ علماء العربية القدماء وأمكن الخلوص فيه إلى نتائج باهرة، فهل في رفوف مكتبة الأجداد تلك ما هو أحوج لنفض الغبار عنه من المباحث والمسائل والقضايا اللغوية؟، أو بالأحرى، هل في تراثنا اللغوي ما يستوجبُ إعادة القراءة وإعادة الفهم لأجل التأكيد على موسوعية مصادر اللغة العربية وثرائها وسبقها؟.

إلى أن يُجاب على ذلك التساؤل، حسبنا بهذا البحث أن نكون قد أسدينا خدمة ولو متواضعة لمكتبتنا التراثية؛ بأن أشرنا إلى واحدة من دُرَرٍ كامنة برفوفها، هي نِتَاج عقليةٍ راقيةٍ، أكدت وتؤكد على أصالة كثير من القضايا اللغوية وسلامة منهج تناولها، فضلاً عن دقة النتائج المُ[illegible]ليها فيها.

وحسبنا كذلك أن يكون هذا العمل تأييداً وتدعيماً لموقف الداعين بضرورة الرجوع إلى مصنفات علماء العرب وإعادة قراءتها، وإعادة فهمها، واستنباط كثيرٍ مما لم يُعرف إلا اليوم منها، وإثبات أنه مضمّن في صفحاتها.

وختاماً نقول: إذا ما حَظِيَ هذا البحث بشيء من التوفيق فليس ذلك إلا من الله الهادي الموفّق، وإن كانت الأخرى فمن أنفسنا الخطاءة الساهية والشيطان.

هذا ونسأل الله عز وجل قبول العمل، ومغفرة السهو والخطل، وإزجال الثواب والأجر، إنه على كل شيء قدير. ومسك الختام صلاة وسلام على النبي محمد الأمين، وكافة الأنبياء والمرسلين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.